أبو طالب شاعر العقيدة والإلتزام

المدرس الدكتور
أحمد محسن الأسدي[1]
جامعة الإمام الصادق a ـ ميسان
Alasadeeahmad77@gmail.com

Abu Talib Poet of Creed and Commitment

Lecturer Dr.
Ahmed Mohsen Al-Asadi
Imam Sadiq University (peace be upon him) – Maysan

الملخص:-

إنَّ الكتابة في تاريخ الشِّعر العربي عريقةٌ منذ عصر التَّدوين الأوَّل، غزيرة المادَّة، متنوِّعة الأُسلوب، تصدَّى لها رواةٌ مشهورون وعلماء موسوعيُّون فلاحقوا كلَّ شاردة وواردة، وجمعوا فأوعوا، واستوعبوا اتِّجاهاته وأبوابه، غير أنَّ افتراق المدارس الفقهيَّة السياسيَّة، وتَمذهُبَ السلف عليها، ونشوءَ النظريَّات المختلفة والمشارب المتنوِّعة، أعطى للتأليف زخماً واضحاً في مختلف العلوم والمعارف، بقدر ما ترك الباب مفتوحاً أمام الاختيار والانتقاء والتفضيل، بل الانحياز بوجه أو دون وجه لخصوصيَّة الرَّأي والاتِّجاه.

وممَّا لا شكَّ فيه أنَّ معالجةَ النَّص الشِّعري واستنطاقه، وإضفاءَ شهادات نقديَّة أو تاريخيَّة عليه، واستيعابَ حركة الحدث فيه، هي مهمَّةٌ صعبةٌ حساسةٌ ينبغي لمرتادها أنْ تتحقَّق لديه صفات البحث العلمي والموضوعيَّة، والقدرة على صياغة الجهد بأسلوب مناسب متوازن مدروس، وهو ما قلَّ مثيلُه في أغلب موسوعات التَّاريخ الأدبي المتداولة التي اتَّكلت في موضوع الأدب الدِّيني على مبانٍ سابقة دون رويَّة، أو انكفأت على نظرات كتَّابها المبتورة الخاصَّة، حتَّى لا نكاد نعثر ـ مثلاً ـ خلال عقود طويلة على تجربة معاصرة وافية في تاريخ الأدب العربي المكتوب بأيدي أبنائه بعد أنْ تسرَّبَ خطل الرَّأي وحَوَل الفكرة إلى أقلام أجيال عديدة.

ولأجل هذا وغيره حاولت في بحثي الموسوم بـ(أبو طالب شاعر العقيدة والالتزام) كتابة الأدب الإسلامي الملتزم برؤية منصفة، متَّخذاً من الشِّعر الرِّسالي لأبي طالب (رضي الله عنه) مدخلاً إلى ذلك؛ لأنَّ الولاء للرَّسول لا يُستثنى منه شيخهم المنافح عن الرَّسول والرِّسالة أبو طالب (رضي الله عنه)، والذي ترك بحضوره الفاعل وقدسيَّته وأدواره الاستثنائيَّة بصمات تاريخيَّة لا تخفى.

الكلمات المفتاحية: الشعر، أبو طالب، العقيدة، الولاء، الالتزام.

Abstract:-

Writing in the history of Arabic poetry is ancient since the era of the first codification, abundant in material, diverse in style. Famous narrators and encyclopedic scholars confronted it. They pursued everything that came and went. The various approaches gave authorship a clear impetus in the various sciences and knowledge, as much as he left the door open to choice, selection, and preference.

There is no doubt that dealing with the poetic text and interrogating it, giving critical or historical testimonies to it, and understanding the movement of the event in it, is a difficult and sensitive task that its pilgrim must achieve the qualities of scientific research and objectivity, and the ability to formulate the effort in an appropriate, balanced and thoughtful manner, which is less than anything like it. Most of the current encyclopedias of literary history that relied on the subject of religious literature on previous buildings without seeing it, or relied on the truncated views of their own writers, so that we hardly find, for example, during many decades a comprehensive contemporary experience in the history of Arabic literature written in the hands of its sons after a line leaked out. The opinion and the transfer of the idea to the pens of many generations.

For this and other reasons, I tried in my research entitled (Abu Talib, the Poet of Creed and Commitment) to write Islamic literature that is committed to a fair vision, taking from the missionary poetry of Abu Talib (may God be pleased with him) as an introduction to that; Because loyalty to the Messenger (may God bless him and his family) does not exclude their sheikh al-Manafih Abu Talib (may God be pleased with him), whose active presence, sanctity and exceptional roles left undisputed historical imprints.

Key words: poetry, Abu Talib, belief, loyalty, commitment.

المقدِّمة:ـ

في نظرةٍ فاحصةٍ مستوعبة للشعر المقول في صدر الإسلام الأوَّل، يجد الباحث أموراً لا بُدَّ له من استقصائها، تمثِّل الرَّكائز الأساسيَّة له، حتَّى لا يمكن الاستغناء عنها وعن إيرادها؛ كونها لها مدخليَّة مؤثِّرة في تحديد المعالم العامَّة لتلك الفترة على الصعيدين التَّاريخي والأدبي.

وفي هذا السياق يمكن لنَا أنْ ندرجَ بثقة تامَّة شعر أبي طالب (رضي الله عنه) ضمن هذين الصعيدين؛ لأنَّ بعض المتحاملين على الإسلام ورجاله كان يشكِّك في إسلامه (رضي الله عنه)، بل يقطع نفرٌ منهم بكفره، مأخوذين بسياسة التَّزوير الأُمويَّة لدور ابنه أمير المؤمنين a ومَنْ يَمُتُّ إليه بصلة. لكن ـ ولله الحمد ـ سوف ندع أشعارَهُ الموثَّقة المرويَّة بطرق صحيحة يُعتدُّ بها، تتحدَّث عن نفسها وصاحبها الذي ساهم إلى حدٍّ بعيد في إغناء حركة الرِّسالة بشخصه وشعره وحضوره المتميِّز، ولترو لنا فصولاً من تاريخ فجر الإسلام المصوغة شعراً فيه من القيم الأدبيَّة والعقديَّة والتاريخيَّة الشيء الكثير، ونترك الحكم لضمير القارئ المتنوِّر البعيد عن العصبيَّة العمياء والغباء الطائفي والنظرة الأُحاديَّة الموروثة دون رويَّة أو فكر، خصوصاً وأنَّ أبا طالب (رضي الله عنه) عاش وتوفِّي محموداً بعيداً عن جعاجع الطوائف والمذاهب والفِرق.

ونحن وإنْ تناولنا من تاريخ أبي طالب (رضي الله عنه) المُشرق جانباً واحداً هو الشِّعر، إلاَّ إنَّه يعبِّر ـ حسب ما نعتقد ـ عن جانب كبير لتحديد تلك الشخصيَّة الرِّساليَّة، بل قد يؤسِّس هذا الشِّعر أمامنا ركيزةً متينةً تشكِّل نقطة الانطلاق في البحث والتشخيص والتقويم، بصفته أصدق تراثٍ حاكٍ عن إيمان أبي طالب (رضي الله عنه) المنقطع النظير، وكاشف عن عقيدته وذوبانه في الإسلام وحامله ومبلِّغه محمَّدٍ i .

ترجمة أبي طالب:

هو عمُّ النبيِّ i وكافله وحاميه من قريش والمدافع الأوَّل عنه بشخصه ولسانه وكلٌ ما يملك. أسلم وحسن إسلامه، وقد ظهرت في شعره النزعة الاسلاميَّة غنيَّةً واضحةً، وخبره معلومٌ لا يخفى على منصف غير منساق الى التعصُّب والنظرة الأُحاديَّة الموروثة دون رويَّة أو فكر.

اسمه الحقيقي عبد مناف، واشتُهر بكنيته (أبو طالب)، وهو الأخ الشقيق لوالد رسول الله i عبد الله بن عبد المطَّلب. أمُّه هي فاطمة بنت عمرو. تولَّى أبو طالب رعاية ابن أخيه محمَّد بعد وفاة جدِّه عبد المطَّلب وهو ابن ثماني سنوات حينئذ، ولذلك أحبَّه حباً شديداً، وآواه ونصره، حتَّى قال له حين بُعث: (يابن أخي قم بأمرك فلن يوصل إليك وأنا حي).

كان أبو طالب منيعاً عزيزاً في قريش، وكانت قريش تطعم، فإذا أطعم أبو طالب لم يطعم يومئذ أحدٌ غيره.

توفِّي أبو طالب في السنة العاشرة للبعثة، فسبَّب موته الحزن الشديد على قلب رسول الله i ، وبعد موته بثلاثة أيام توفِّيت خديجة (رضي الله عنها) زوجة النبي i ، فكانت أياماً عصيبة على رسول الله لفقده مَن كان يؤازره وينصره ويذود عنه في آن واحد[٢].

القيمة الأدبيَّة والتاريخيَّة لشعر أبي طالب (رضي الله عنه):

إنَّ الحديث عن أبي طالب (رضي الله عنه) طويل وكثير، ولا نحسب أحداً يُنكر أنَّ أبا طالب هو الذي منع النبيَّ i وحماه من أذى قُريش بقولته الشهيرة له حين دعا رجال عشيرته: ((ما أحبَّ إلينا معاونتك، وأقبلنا لنصيحتك، وأشدَّ تصديقنا لحديثك، وهؤلاء بنو أبيك مجتمعون، وإنَّما أنا أحدهم، غير أنَّي أسرعهم إلى ما تحبُّ، فامضِ لما أُمِرتَ به))[٣].

ولا يهمُّنا من تاريخ أبي طالب المُشرق سوى ما له ارتباطٌ بأشعاره الرِّساليَّة وقصائده النَّبويَّة التي هي قيد دراستنا، مع ثقتنا الكبيرة بأنَّ له أشعاراً أخرى ضاعت أو ضُيِّعت أو نُسبت إلى غيره، كالبيت الذي وجدناه في ديوان العبَّاس بن مرداس السلمي:

ومِنْ قبلُ آمنَّا وقدْ كانَ قَوْمُنا ... يُصلِّونَ للأوثانِ قبلَ مُحمَّدِ[٤]

والبيت يفصح بنفسه عن قائله الحقيقي أبي طالب (رضي الله عنه)؛ لأنَّه آمن من قبل، وقومُهُ يصلِّون للأوثان، وكان إيمانه على دين إبراهيم a ، أمَّا العبَّاس بن مرداس وقومه فلم يؤمنوا إلاَّ قُبيل الفتح.

أو البيت الذي ضمَّتْهُ قصيدةٌ رُويتْ لحسَّان بن ثابت:

وَشَقَّ لَهُ مِنِ إسْمِهِ لِيُجِلَّهُ ... فَذو العرْشِ محمودٌ وهذا مُحَمَّدُ[٥]

وما هذا التَّردَّد في نسبة هذين البيتين وغيرهما إلاَّ نتاج لسياسة التَّعتيم والتَّكميم التي أثَّرت كثيراً في النِّتاج الأدبي الإسلامي.

وقبل أنْ نبحرَ في تيَّار أشعاره الهادر نحاول أنْ نتحدَّثَ عن شيءٍ من أهمِّيَّتها ومكانتها وقيمتها الأدبيَّة والتاريخيَّة، فنقول:

١- إنَّ قصائدَهُ تؤرِّخ أخطرَ مرحلة وأهمَّها وأدقَّها من مراحل الدَّعوة الإسلاميَّة، وهي بمجموعها وثائق حيَّة تُفصح عن الحالات السياسيَّة والاجتماعيَّة وحتَّى الاقتصاديَّة التي أناخت على مكَّة في فجر الرِّسالة.

٢- إنَّها أكثر النُّصوص التَّاريخيَّة وضوحاً وقوَّةً في الدِّفاع المستميت عن النبيِّ i ودعوته. ولئن اتخذ غيرُهُ جانب الصمت أو التَّظلُّم (المنقطع الأنين)، فإنَّ أبا طالب (رضي الله عنه) كان يحرِّك قصائده على أكثر من مساحة؛ فمن الفخر إلى المناشدة للتعقُّل من مستوى أعلى، باعتباره شيخ الأباطح، مروراً بسياقات عديدة متنوِّعة من هجاء وتوبيخ، وتبشير مباشر وغير مباشر بهذا الصوت الجديد الداعي إلى الله سبحانه.

٣- إنَّها وظَّفت الحميَّة القبليَّة والمرتكزات الاجتماعيَّة الجاهليَّة بأساليب بديعة تنمُّ عن براعة شاعرها وذكائه؛ لتؤتي ثمارها المرجوَّة في حفظ هذا المنقذ ودعوته السماويَّة، في حين كانت كلُّ النوازع القرشيَّة تدلُّ دائماً على الحاجة إلى قتل الرَّسول i والتخلُّص منه.

٤- لقد ربَّتْ تلك الأشعار رجالاً عديدين، ومهَّدتْ أمامهم طريق التَّضحية والفداء وتحمُّل المسؤوليَّة في الدِّفاع والحماية، وذلك من خلال طرح الأفكار القويَّة وحشد التَّأييد النَّاتج عن الاقتناع لا العاطفة فقط، وهو ما جسَّده في هذين البيتين:

إنَّ عليَّـــاً وجَعْفـــراً ثقـــتي ... عنـــدَ احتـــدامِ الأُمـــورِ والكُـــرَبِ

لا تَخْـــذُلا وانْصُـــرَا ابـــنَ عمِّكُمَـــا ... أخِـــي لأُمِّـــي مِـــنْ بيْـــنِهِمْ وأبِـــي[٦]

٥- سلَّطت الضوء الكاشف على هذا الرَّجل وجهاده الخفي والعلني، فأرتنا الأبعاد الخطرة التي وصلتها حملاتُ التَّخريب والتشويه والتحريف الأُمويَّة لتسقيط رموز الإسلام ورجاله.

٦ ـ تميَّزتْ لغتها الشِّعريَّة بوجود بذورِ تجديدٍ وتمرُّدٍ على لغة الشِّعر الجاهلي، فنجد رقَّةً في الألفاظ، وسلاسةً في التَّراكيب، إلى عمقٍ في المعنى، ودخولِ أفكار دينيَّة فلسفيَّة بدرجات خفيفة إلى قوام قصائده، وهذا شيء جديد لمْ تألفه الذائقة الجاهليَّة العريقة.

٧ ـ تتَّسم بطغيان الصدق في العاطفة والانفعال، والإخلاص في التَّفاني والحبِّ على مدار قصائده ومقطوعاته الكثيرة التي تُنبئ بإيمان قائلها، بحيث لا يبقى شكٌّ في إسلامه عند مَن يقرأ شعره بتجُّردٍ وموضوعيَّة.

٨ ـ تمتاز بتواترها المثير للاطمئنان بأنَّها لأبي طالب (رضي الله عنه) فعلاً؛ وذلك لكثرة المصادر التي روتها على اختلاف مذاهبها ومشاربها واتِّجاهاتها، ولعلَّ قولَ ابن أبي الحديد في كتابه (شرح نهج البلاغة) قولٌ فصلٌ في هذا الأمر، حيث يقول: ((فكلُّ هذه الأشعار قد جاءت مجيء التَّواتر؛ لأنَّه إنْ لمْ تكنْ آحادها متواترةً، فمجموعها يدلُّ على أمر واحد مشترك وهو تصديق محمَّدٍ i ، ومجموعها متواترٌ، كما أنَّ كلَّ واحدة من قتلات عليٍّ a الفرسان منقولة آحاداً، ومجموعها متواتر يفيدنا العلم الضروري بشجاعته، وكذلك القول فيما رُوِي من سخاء حاتم، وحلم الأحنف، وذكاء إياس، وخلاعة أبي نؤاس، وغير ذلك... واتركوا هذا كلَّه جانباً، فما قولكم في القصيدة اللاميَّة التي شهرتها كشهرة (قفا نبكِ)؟ فإنْ جاز الشَّكُّ فيها أو في شيءٍ من أبياتها، جاز الشَّكُّ في (قفا نبكِ) وفي بعض أبياتها))[٧].

٩- ضمَّت صوراً حيَّة نادرة تتحرَّك متوثِّبة على مساحات قصائد عديدة، أهمُّها لاميَّتَهُ الشهيرة الطويلة الخالية من أيِّ فتور أو اضطراب أو تلكؤ، مع أنَّها تجاوزت المئة بيتٍ، والتي مطلعها:

خليليَّ ما أُذْني لأوَّلِ عاذلِ ... بصغواءَ في حقٍّ ولا عندَ باطلِ[٨]

١٠- التزمت مراعاة الدقَّة الفنيَّة في اختيار المفردات حسب الأغراض الشِّعريَّة المتعدِّدة، فنجدها فخمةَ الجزالة، قويَّةَ الجرس حين يفخر أو ينتفض أو يهدِّد، ونراها رقراقةً هادئةً ليِّنةً حينما يشكو أو يرثي أو يعاتب، مع وضوحٍ في الرؤية وصفاءٍ في المشاعر عند كلِّ معالجة شعريَّة.

١١- احتواؤها على تشبيهات ومفاجآت وتهكُّمات جديدة عديدة مع نَفَس أوَّلي لإدخال السخريَّة اللاذعة في الشِّعر، ممَّا يزيد شعره إشراقاً ويضفي عليه لمسات إبداعٍ، كما في هذا البيت:

فإنْ كُنْتُمُ تَرْجُوْنَ قتلَ مُحمَّدٍ فَرُوْمُوا بمَا جمَّعْتُمُ نقلَ يَذبُلِ[٩]

وهذا البيت يثير أمام الباحث المنصف تساؤلات عديدة، ويكشف لنَا مدى تفاني أبي طالب (رضي الله عنه) في الدِّفاع عن صاحب الرِّسالة، وكم أحكم خططه في حراسة النبيِّ i حتَّى باءت كلُّ محاولات قتله بالفشل؟ وكم تعب هذا الشيخ الطاعن في السنِّ ليقي النبيَّ i بروحه وراحته؟

بعد كلِّ ذلك لا يعدم الأدب العربي في مؤرِّخيه وناقديه المدَّعين للتنوُّر والمنهجيَّة في زمننا المعاصر، مَن يتنكَّبُ سبيل الإنصاف والمروءة، جرياً على عادة الأسلاف الغابرين ممَّن عاثت في نفوسهم الحميَّةُ الجاهليَّة والعصبيَّة القبليَّة قبل أنْ تُبلي أجسادَهم الأرضُ التي عفت على كلِّ شيء. نعم لا يعدم الأدب المعاصر أمثال الدكتور محمَّد عبد العزيز الكفراوي حين يلقي الكلام على عواهنه فيدَّعي ((أنَّ ظهور شعر يدافع عن الدَّعوة الجديدة بين ظهراني قُريش أمرٌ بعيد الاحتمال؛ ولذا لم يروِ مؤرِّخو الأدب من ذلك إلاَّ قدراً ضئيلاً لأبي طالب يعلنُ فيه إصراره على الوقوف بجانب ابن أخيه رغم كلِّ الاحتمالات، ومع ذلك فرواة هذه الأشعار أنفسهم يعلنون شكَّهم في صحَّة نسبتها إليه))[١٠].

ولا ندري بعد ذلك هل يريد لنا أنْ ننقاد له في مفترضاته، ونترك أئمة الرواية والأدب أمثال ابن أبي الحديد المعتزلي وغيره ممَّن أحصينا فبلغوا العشرات؟ أم تراه لمْ يلتفت إلى مناقضاته في منهجه في الكتاب حين يقول: ((إنَّ يد المزيِّفين امتدَّت إلى هذه الأشعار (يقصد أشعار صدر الإسلام) فزادت بعضها ونسبت بعضاً آخر إلى غير قائليه، وممَّا يزيد من خطورة هذا الاتِّهام أنَّ إماماً مثل أنس بن مالك قد اشترك فيه))[١١].

أبو طالب (رضي اللّه عنه) والأواصر الوثيقة بينه وبين النبيِّ i :-

لعلَّ أوَّلَ وأقدم النُّصوص التي أرَّخت الارتباط المصيري بين النبيِّ i وعمِّه أبي طالب (رضي الله عنه)، قول عبد المطَّلب حين قَبِلَ في أواخر أيَّام حياته أنْ يتكفَّل حفيدَه من بعده ابنُه عبد مناف (أبو طالب)، وهو هذا:

أوْصِيكَ يا عبدَ مُنافٍ بَعْدِي ... بمُوحَدٍ بعدَ أبيهِ فَردِ
فارقَهُ وهو ضجيعُ المهدِ ... فكنتُ كالأُمِّ لهُ في الوَجدِ
تُدنيهِ من أحشائِها والكبْدِ ... حتَّى إذا خفتُ مدادَ الوعدِ
أوصيتُ أرَجى أهلِنا للوفدِ ... بابنِ الذي غيبتُهُ في اللّحدِ
بالكرهِ منِّي ثَمَّ لا بالعمدِ ... فقالَ لي والقولُ ذو مردِّ
ما ابنُ أخي ما عِشْتُ في مَعدِّ ... إلاَّ كأدْنَى وَلَدي في الودِّ
عِنْدي أرَى ذلكَ بابَ الرُّشدِ ... بلْ أحمدٌ قدْ يُرتَجى للرُّشدِ
وكلِّ أمرٍ في الأُمورِ ودِّ ... قد علمتْ عُلاَّمُ أهلِ العهدِ
أنَّ بَنِيْ[١٢] سيِّدُ أهلِ نجدِ ... يعلو على ذي البدن الأشدِّ[١٣]

وقال أيضاً:

أوَصَيْتُ مَنْ كَنَّيْتُهُ بِطالِبِ ... عَبْدَ مَنافٍ وَ هُوَ ذو تجارُبِ
بابنِ الذي قد غابَ غيرَ آئبِ ... بابنِ أخٍ والنسوءِ الحبائبِ

بابنِ الحبيبِ أقربِ الأقاربِ

فقال أبو طالب (رضي الله عنه):

إنِّي سَمِعْتُ أعْجبَ العجائبِ ... لا تُوصِني بلازمٍ وواجبِ[١٤]
محمَّدٍ ذو العُرفِ والذوائبِ ... قلبي إليهِ مُقبلٍ وآئبِ؟!
فلستُ بالآيسِ غيرِ الرَّاغبِ ... بأنْ يحقَّ اللّهُ قولَ الرَّاهبِ
فيه وأنْ يفضلَ آلَ غالبِ ... إنِّي سَمِعْتُ أعجبَ العَجائبِ
مِنْ كلِّ حبرٍ عالمٍ وكاتبِ ... هذا الذي يقتادُ كالجنائبِ
مَنْ حلَّ بالأبطحِ والأخاشبِ ... أيضاً ومَن ثابَ إلى المثاوبِ

مِنْ ساكنٍ للحرمِ أو مجانبِ؟![١٥]

ولنا على هذين النصَّين مؤاخذاتٌ عديدة تبدأ من ضعف أسلوبيهما، والأخطاء اللغويَّة والعروضيَّة التي تخللتهما، مروراً بأنَّ إيصال الفكرتين جاء باهتاً ركيكاً، إلى غيره. ولعلَّ

مردَّ ذلك إلى كثرة تداولهما بين أيدي الرواة والنسَّاخ مع احتمال الزيادة عليهما أو الحذف؛ لأنَّ المؤرِّخين والباحثين) نصُّوا على أنَّ العربي الفصيح غير مقيَّد بلُغة قبيلته إذا نافرت طبع الفصاحة فيه، فمنهم مَن يوافق اللهجة، ومنهم مَن يخالفها... ومن القبائل مَن تأخذ لهجة غيرها كما فعلت قُريش)[١٦].

وربَّما يرجع ذلك إلى طبيعة مكَّة التِّجاريَّة، وكونها ملتقى القوافل والوفود.

ومع أنَّ محمَّداً i يُذكِّر عمَّه أبا طالب بأبيه عبد الله الذي كان له نِعم الأخ، وكان الحبُّ بين الأخوين كبيراً جداً، وحين فقد أخاه، وجد في ولده محمَّد i مجمعاً لحُبِّيه، حبِّ الأخ وحبِّ ابن الأخ، مضافاً إليهما ثقةُ عبد المطَّلب الكبيرة التي أولاها إيَّاه بوصايته عليه i ، فهو ما يفتأ يُردِّدُ مقاسياً غياب أخيه في مقطوعة تفيضُ حسرة وألماً، إلى جانب رسمها صورة توثيقيَّة مهمَّة عن عبد الله والد النبيِّ i ، وما كان عليه من صفات رائدة تؤهلُه لحملِ شرف أبوَّة هذا النبيِّ العظيم i :

عَيْنِي اُنْذِني ببُكاءٍ آخرَ الأبدِ ... ولا تَمَلِّي على قَرْمٍ لنَا سَندِ[١٧]

أشْكُو الذي بيْ مِنَ الوجدِ الشَّديدِ لَهُ ... وما بقلبيْ مِنَ الآلامِ والكَمَدِ[١٨]

أضْحَى أبُوهُ له يبْكِي وإخوتُهُ ... بكلِّ دمعٍ على الخدَّينِ مُطَّردِ

لو عاشَ كانَ لفهرٍ كلِّها عَلَماً ... إذْ كانَ منها مكانَ الرُّوحِ في الجسدِ[١٩]

لكنَّ هذا الصغير لمْ يحسَّ باليُتم؛ حيث إنَّ جدَّه عبد المطَّلب الذي تكفَّله ورعاه خيرَ رعايةٍ، كان يُغدق عليه حنانَهُ الأبوي ورحمته الفيَّاضة وحبَّه الجمَّ، لكنَّه فقد هذا الجدَّ الأبَ بعد سنين، فعرف اليُتم تماماً، وهو يستذكر دائماً لوعة عمِّه أبي طالب (رضي الله عنه) الذي صبَّها عند فراق أبيه شيبة الحمد في هذه الكلمات:

أبكَى العُيونَ وأذرَى دمعَها دُرَرَاً ... مُصابُ شَيبةِ بيتِ الدِّين والكرمِ

كانَ الشُّجاعَ الجَوادَ الفردَ سُؤدَدُهُ ... لهُ فَضائلُ تعلُو سَادةَ الأُممِ

مَضَى أبُو الحَارثِ المأمُولُ نَائلُهُ ... والمُختشَى صَولةً في النَّاسِ بالنِّقمِ

العَامرُ البيتَ بيتَ اللهِ يمْلَؤهُ ... نُوراً فيجلُو كُسُوفَ القحطِ والظُّلَمِ

ربَّ الفِراشِ بصحنِ البيتِ تكرمةً ... بذاكَ فُضِّلَ أهلُ الفخرِ والقِدَمِ

بكـــتْ قُـــريشُ أباهـــا كلُّهـــا وعلَـــى ... أيَّامِهـــا وحِماهـــا الثابـــتِ الـــدَّعَمِ
صـــفيَّ بكِّـــي وجُـــودِي بالـــدُّموعِ لـــهُ ... وأسـعِدِي يـا أمـيمَ اليـومَ بالسَّـجمِ[٢٠]
يُجبْـكِ نسـوةُ رَهـطٍ مـنْ بـني أسـدٍ ... والغـرُّ زهـرةَ بعـدَ العُـربِ والعَجَـمِ
ألمْ يكـــنْ زَيْـــنَ أهـــلِ الأرْضِ كُلِّهـــمُ ... وعِصـمةَ الخلـقِ مِـنْ عَـادٍ ومِـنْ إرمِ[٢١]

وأبو طالب في هذه القصيدة يعبِّر عن حرارة الألم التي تعمَّقت في نفسه، فلم يصمد أمام فاجعته وحسرته حتَّى ينسجها من حالة نفسيَّة غير محسوسة إلى مادَّة أدبيَّة تعطي ثمارها في الوقت المناسب، ولا أدلَّ على ذلك من حكم الوجدان، وربما يُعزى هذا الأمر إلى الانفعالات النفسيَّة والعواطف الإنسانيَّة الممتزجة بإحساسه وشعوره نحو أبيه عبد المطَّلب.

وينتقل محمَّد i إلى دار عمِّه أبي طالب (رضي الله عنه)، وتمرُّ الأيَّام، حتَّى إذا دنا سفره وهمَّ بالرَّحيل تعلَّق هذا الصغير بركابه وهو يبكي بكاءً شديداً؛ لأنَّه لا يستطيع فراقه، فيهتزُّ قلبه المحبُّ ثمَّ ينحني عليه ليأخذه معه في سفرة طويلة تأكل الأيَّامَ والشهورَ، وهو يقول:

بَكَـــى طَرَبـــاً لَمَّـــا رآنـــي محمَّـــدٌ ... كـــأنْ لا يَرانـــي رَاجِعـــاً لِمعَـــادِ
فبِـــتُّ يُجـــافيني تهلُّـــلُ دمعـــهِ ... وعَبْرتـــهِ عـــنْ مَضْـــجَعي ووسَـــادِي
فقُلْـتُ لـهُ قـرِّبْ قتـودَكَ وارتحِـلْ ... ولا تخـشَ منِّـي جَفـوةً بـبلادِ
وخـلِّ زمـامَ العـيسِ وارْحَـلْ بِنَـا مَعـاً ... علـى عَزمـةٍ مـنْ أمرنـا ورَشـادِ
ورُحْ رَائِحـاً في الـرَّائحين مُشـيِّعاً ... لـدى رَحِـمٍ والقـومُ غـيرُ بُعـادِ
فرحنـا مـع العـيرِ الـتي راحَ ركبُهـا ... يؤمُّـونَ مـن غـورينِ أرضَ إيـادِ[٢٢]

ويسافران معاً، ويرى الرَّاهبُ بحيرا هذا الفتى النَّاشئ تلوح عليه علامات النبوَّة، فيُسِرُّ بها إلى عمِّه ويوصيه بالمحافظة عليه، ويحذِّره أعداءه. ثمَّ يعودان وقد رأى رفقاؤه كرامات مذهلة لهذا الصغير، فيتابع بَوحَهُ الشِّعري قائلاً:

فمـا رجَعُـوا حتَّـى رأَوْا مِـن محمَّـدٍ ... أحاديـثَ تَجْلـو غـمَّ كـلِّ فُـؤادِ
وحتَّـى رأَوا أحبـارَ كـلِّ مدينـةٍ ... سُـجوداً لـهُ مِـن عُصْـبةٍ وفُـرادِ
زَبِـيراً وتَمَّامـاً وقـد كـانَ شـاهداً ... دَريـسٌ وهمُّـوا كلُّهُـم بفسـادِ

فقـــالَ لَهُـــم قَـــولاً بَحِـــيرا وأَيْقَنـــوا ... لـــهُ بعـــدَ تكـــذيبٍ وطُـــولِ بَعـــادِ
كمـــا قـــالَ للـــرَّهْطِ الـــذينَ تَهَـــوَّدوا ... وجاهَـــدَهُم في اللّهِ كـــلَّ جِهـــادِ
فقـــالَ ولم يَتْـــرُكْ لـــهُ النُّصْـــحُ رِدَّةً ... فـــإنَّ لـــهُ إرصـــادَ كـــلِّ مَصـــادِ
فـــإنِّي أخـــافُ الحاسِـــدينَ وإنَّـــهُ ... لَفـــي الكُتْـــبِ مَكْتـــوبٌ بكُـــلِّ مِـــداد[٢٣]

لكنَّ تلك الدموع، وذلك التَّعلُّق بالركاب يظلان يُلحَّان على ذاكرة العمِّ الحاني، فيذيبان قلبَه كلمات وقصائدَ عذبة، لا تبلوهما الأيَّام والسنون؛ ولهذا عندما يقارع أبو طالب (رضي الله عنه) قُريشاً بأشعاره لا يملك إلاَّ أنْ ينساق وراء تلك الذكرى الكبيرة، فيدوِّنها ثمَّ يعود للقوم مدوِّناً أحداث تلك الأيَّام وكشوفاتها المذهلة بشأنه i :

إنَّ الأمـــينَ محمَّـــداً في قَومـــهِ ... عِنـــدي يفـــوقُ منـــازلَ الأولادِ
لَمَّـــا تعلَّـــقَ بالزِّمـــامِ ضَـــمَمْتُهُ ... والعِـــيسُ قـــد قَلَّصْـــنَ بـــالأزوادِ[٢٤]
فـــارْفَضَّ مِـــن عـــينيَّ دَمْـــعٌ ذارفٌ ... مثـــلُ الجُمـــانِ مُفـــرَّقٌ ببـــدادِ
راعَيْـــتُ فيـــهِ قرابـــةً مَوْصـــولةً ... وحفظـــتُ فيـــهِ وصـــيَّةَ الأجـــدادِ
ودَعوتُـــهُ للسَّـــيرِ بـــينَ عُمومـــةٍ ... بِـــيضِ الوجـــوهِ مَصـــالتٍ أمجـــادِ
ســـارُوا لأبعـــدِ طيَّـــةٍ مَعلومـــةٍ ... فلقـــد تُباعـــدُ طيَّـــةُ المُرْتـــادِ[٢٥]
حتَّـــى إذا مـــا القـــومُ بصـــرى عـــايَنوا ... لاقَـــوْا علـــى شَـــرَفٍ مـــنَ المِرْصـــادِ
حَـــبراً فـــأَخْبَرهُم حـــديثاً صـــادقاً ... عنـــهُ وردَّ معاشـــرَ الحُسَّـــادِ
قـــومٌ يهـــودٌ قـــد رَأوا مـــا قـــدْ رَأوا ... ظِـــلَّ الغمامـــةِ ثـــاغِري الأكبـــادِ
ثـــارُوا لقتـــلِ محمَّـــدٍ فَنَهـــاهُمُ ... عنـــهُ وجاهـــدَ أَحســـنَ التَّجْهـــادِ
وثنَـــى بَحِـــيراءٌ زَبِـــيراً فـــائْثَنَى ... في القَـــومِ بعـــدَ تَجـــادُلٍ وتَعـــادي
ونَهَـــى دَريســـاً فـــانْتَهَى لَمَّـــا نُهـــي ... عـــنْ قَـــولِ حِـــبرٍ نـــاطقٍ بِسَـــدادِ[٢٦]

وهي قصيدة أسفرت أبياتها عن صور جميلة، تفننَّ فيها أبو طالب (رضي الله عنه) بذكاء في مزج ألوانها الزاهية المختلفة على الرُّغم من اهتمامه المتواصل في غالبية أبياتها بتاريخ أحداث سفرتهم هذه، وما لاقوه من اليهود وأحبارهم الذين رأوا دلائل النبوَّة تلوح على جبين محمَّد i وهو لَمَّا يبلغ الحُلم.

ويقول ضمن هذا الغرض قصيدةً رائعةً يتجسَّد فيها البناءُ قويّاً متماسكاً، ويلوح في أُفقها اتّساع الموضوع ليشمل المقروءَ والمحسوسَ ضمن دائرةٍ واحدة، ويتّصل اللفظ بالمعنى ليؤلِّف وضوحاً حاداً صارخاً بنَفَسٍ مكبوت يطوف على مساحة النَّص:

أَلَـمْ تَرَنِـي مِـنْ بَعْـدِ هَـمٍّ هَمَمْتـهُ ... بِفُرْقَـةِ حُـرٍّ مِـن أبَـيْنِ كِـرَامِ

بِأَحْمَـدَ لَمَّـا أَنْ شَـدَدْتُ مَطِيَّتِـي ... برحلَـي وقَـدْ وَدَّعْتـه بِسَـلامِ

فلمَّـا بَكَـى وَالعِـيسُ قَـدْ قلَّصتْ بِنَـا ... وَقَـدْ نَـاشَ بِـالكَفَّيْنِ ثَـنيَ زِمَـامِ[٢٧]

ذَكَـرْتُ أَبَـاهُ ثُـمّ رَقْرَقْـتُ عَبْـرَةً ... تَجُـودُ مِـنْ العَيْنَـيْنِ ذَاتُ سِـجَامِ[٢٨]

فَقُلْـتُ تَرحَّـلْ رَاشِـداً فِـي عُمُومَـةٍ ... مُوَاسِـينَ فِـي البَأسَـاءِ غَيْـرِ لِئَـامِ

وجَـاء مَـعَ الْعِـيرِ الـتي رَاحَ أَهْلُهَـا ... شَـآمِي الْهَـوَى وَالْركـبُ غَيْـرُ شَـآمِي

فَلَمَّـا هَبَطْنَـا أَرْضَ بُصْـرَى تَشَـرَّفُوا ... لَنَـا فَـوْقَ دُورٍ يَنْظُـرُونَ عظَـامِ

فجـاءَ بحـيراءٌ إلينـا مُحاشـداً ... بطِيـبِ شَـرابٍ عنـدَهُ وطَعَـامِ

فَقَـالَ اجْمَعُـوا أَصْـحَابَكُمْ عنـدَما رأى ... فَقُلْنَـا جَمَعْنَـا الْقَـوْمَ غَيْـرَ غُـلامِ

يتـيمٍ فقـالَ ادعـوهُ إنَّ طعامَنَـا ... لَـهُ دُونَكُـمْ مِـنْ سُـوقَةٍ وإمَـامِ

وآلى يمينـاً بَـرَّةً إنَّ زادَنَـا ... كـثيرٌ عليـهِ اليـومَ غـيرُ حَـرَامِ

فلـولا الـذي خَبَّـرتمُ عـنْ محمَّـدٍ ... لكنْـتُمْ لـدَيْنا اليـومَ غـيرَ كِـرامِ

وأقبـلَ رَكْـبٌ يطلبـونَ الـذي رَأى ... بَحـيراءُ رأيَ العـينِ وسْـطَ خيـامِ

فثـارَ إلـيهمْ خشـيةً لعُـرامِهِمْ ... وكـانُوْا ذَوِي بَغـيٍ لنَـا وعُـرامِ[٢٩]

دَريـسٌ وهَمَّـامٌ وقـدْ كـان فـيهمُ ... زَبـيرٌ وكـلُّ القـومِ غـيرُ نِيـامِ

فجـاؤوا وقـد هَمُّـوا بقتـلِ محمَّـدٍ ... فـردَّهُمُ عنْـهُ بحُسـنِ خِصـامِ

بتأويلـهِ التَّـوراةَ حَتَّـى تَيقَّنُـوا ... وقـالَ لهـم رُمْـتُمْ أشـدَّ مَـرامِ

أَتَبغـونَ قَـتْلاً للـنبيِّ محمَّـدٍ ... خُصِصْـتُمْ علـى شُـؤمٍ بطـولِ أثـامِ

وإنَّ الـذي نختـارُهُ منـهُ مـانعٌ ... سَـيَكفيهِ مـنكمْ كيـدَ كـل طَغـامِ[٣٠]

فـذلكَ مِـن أعلامِـهِ وبَيانـهِ ... ولـيس نَهـارٌ واضـحٌ كظَـلامِ[٣١]

وهذه القصائد الثلاث لها أهمِّيَّة تاريخيَّة كبرى؛ لأنَّها تحدَّثتْ عن محاولة أثيمة لقتل محمَّد الصبي i ، بعدما رأى القوم بعضاً من الكرامات، ومنها أنَّ الغمام كان يظلِّله أينما ذهب؛ ليقيه حرَّ الشمس ولهيب القيظ. ثمَّ إنَّ بحيرا الرَّاهب كان يتلو عليهم ما جاء في التَّوراة عن النبيِّ الموعود، وأنَّ هذه الكرامات التي رأوها وأنكروها ما هي إلاَّ علامات النبيِّ الرَّحيم المبشَّر به في الصحف الأولى.

وفي باقي الأبيات نصوص تاريخيَّة لا تخفى، وفيها من جانب آخر سردٌ حواريٌّ مُتقَن لا يهبط إلى النَّثر، مع لفتات فنيَّة جميلة، يفرغها بلُغة عذبة رقيقة شاعرُها أبو طالب (رضي الله عنه)، وهو يصوغها من دماء قلبه المفعم بالحبِّ والحنان لهذا الحبيب اليتيم، ذي الشَّأن العظيم، لينتهي إلى انتزاع الحقيقة عن الخيال، وتمييز الحقِّ من الباطل، والأخذ بتلابيب التأريخ إلى وجهتها الصحيحة الصائبة، بعيداً عن التزوير والخرافة والدسِّ والافتراء، متجاوزاً في ذلك كلَّ نظرة تقليديَّة ساذجة لا تمتُّ إلى الواقع بصلة. وقد عدَّ ابنُ سلام في طبقاته أبا طالب وأخاه الزُّبير بن عبد المطَّلب من أبرع شعراء مكَّة مهد اللغة والأدب[٣٢]، وتابعه على ذلك أغلب المؤرِّخين والكتَّاب.

أبو طالب (رضي الله عنه) والدعوة النَّبويَّة:

إنَّ القصائد تحتدم وهي تأخذ منحىً جديداً ضمن هذا الغرض، بعد أوَّل صوت يطلقه الرَّسول الكريم i داعياً إلى الله ومبشِّراً بسعادة الدُّنيا والآخرة. وسوف نرود الدَّرب اللاحب الطويل مع قصائد أبي طالب (رضي الله عنه) التي تسجِّل مفرداتها حلقات مفقودة من تاريخنا العظيم، تلك الحلقات الأولى التي تفتَّحتْ فيها رسالة الحقِّ من أكمامها لتمنح العالم كلَّه عبيرها العذب الذائع، فنلاحظ أنَّ أبا طالب (رضي الله عنه) تارةً يتكلَّم بهدوء ونصيحة ناعمة المفردات، حاثَّاً أقاربه والمحيطين به على الاهتداء بالنور المحمَّدي، وتارةً أخرى يعلنها صريحةً أنَّه يؤيِّده بكلِّ ما أوتي من قوَّة، وينصره أقصى حدود النصر، ويذبُّ عنه بكلِّ ما يملك، وتارة ثالثة يصانع بأسلوب سياسي متين من أجل كسب مزيد من الوقت والتأييد.

ولعلَّ أهمَّ ما سجَّله أبو طالب (رضي الله عنه) هو أنَّه جعلهم متحيِّرين في أمره، وأنَّه هل اتَّبع أمر ابن أخيه وانضمَّ إلى ركب المسلمين؟ أو أنَّه ما زال في منأىً عن هذا الأمر؟

والذي أوقعهم في هذه الحيرة هو شعره (رضي الله عنه)، فهو يدافع عن ابن أخيه ويدعو إلى دينه بقوَّة، ويحثُّ النَّاس على اعتناقه، ويؤكِّد لهم أنَّ محمَّداً i (رسولٌ كموسى خُطَّ في أوَّل الكتبِ)، ويقول لابن أخيه: ((اصدع برأيكَ ما عليكَ غضاضةٌ))، فقد علمتُ أنَّك صادقٌ، ((ولقد صدقتَ وكنتَ قبلُ أمينا)). وحينما يهمُّون بالانقضاض على النبيِّ i ومَن معه بعدما كادوا يستيقنون أنَّ أبا طالب (رضي الله عنه) قد أسلم، وأنْ لا فائدة من إعطاء مزيد من الوقت أمامه وأمامَ ابن أخيه، يبغتهم صوتُهُ (رضي الله عنه) مروِّضاً:

سَقى اللهُ رَهْطاً هُمُ بالحُجون ... قِيامٌ وقَد هَجَعَ النُّوَّمُ
قَضَوا ما قَضَوا في دُجى لَيْلهمْ ... ومُسْتَوسِنُ النَّاسِ لا يعلمُ
بَهاليلُ غُرٌّ لهمُ سَورَةٌ ... يُداوَى بها الأَبْلجُ المُحرِمُ
كشِبهِ المقاولِ عندَ الحُجون ... بَلْ هُمْ أعزُّ وهُمْ أعظمُ
لدى رَجُلٍ مُرشِدٍ أمرُهُ ... إلى الحقِّ يَدعو ويستعصِمُ
فلولا حِذاري نَثا سُبَّةٍ ... يَشيدُ بها الحاسِدُ المُفْعَمُ[٣٣]
ورهبةِ عارٍ على أسْرتِي ... إذا ما أتَى أرضَنا المَوْسِمُ
لَتابعْتُه غيرَ ذي مِرْيةٍ ... ولو سِيءَ ذُو الرَّأيِ والمحرَمُ
كقولِ قُصيٍّ ألا أَقصروا ... ولا تَرْكبوا ما بهِ المأثَمُ
فإنَّا بمكَّةَ قِدْماً لنَا ... بها العزُّ والخطَرُ الأَعظمُ
ومن يكُ فيها له عزَّةٌ ... حديثاً فعزَّتْنا الأقدَمُ
ونحنُ ببطحائها الرَّائِسونَ ... والقائدونَ ومَن يحكُمُ
نشأنا وكنَّا قليلاً بها ... نُجيرُ وكنَّا بها نُطعمُ
إذا عضَّ أزْمُ السنينِ الأنامَ ... وحبَّ القُتارَ بها المُعْدِمُ
نَمانيَ شَيبةُ ساقي الحجيجِ ... ومجدٌ منيفُ الذُّرى مُعْلَمُ[٣٤]

فتهدأ غلواؤهم، ويقعون في حيرة من أمرهم، ثمَّ يقولون: (دَعُوهُ أيَّاماً أخرى لعلَّه يكون معنا ضد ابن أخيه).

وفي هذه القصيدة يوصل أبو طالب (رضي الله عنه) أكثر من فكرة، فمن مدحه النبيَّ i

وأتباعه، إلى إعتذاره في إعلان إسلامه على الملأ، وهو النَّاصر والحامي والمدافع، بما يبدو ـ عنده ـ انتهاجاً لخطَّة ذكيَّة في (التكتيك) فرضتها عليه مرحلته الحرجة، إلى عودته للفخر بأهله ومدحهم مدحاً لرسول الله i وفخراً به، كلُّ ذلك بإجادة واثقة وفصاحة متمكِّنة تصدرُ عن نفس مفعمة بالحماسة والنجدة في نصرة الحقِّ.

وتمرُّ الأيَّام، والصوت المحمَّدي يتعالى، والقناة الإعلاميَّة الكبرى لأبي طالب (رضي الله عنه) تبثُّ إلى النَّاس نداءاتٍ قويَّة الإقناع، محكمة الأُسلوب، دافئة النبرة، موقظةً كلَّ إحساس نبيل من أجل أنْ يؤمنوا وينضووا تحت لوائه، وإذا أسلم رجلٌ حيَّاه أبو طالب (رضي الله عنه) وهنَّأه بشعر عذب جميل.

أبو طالب (رضي الله عنه) ومدحُ النبيِّ i :

لَّما كان المدح أسلوباً له أثره الفاعل في حشد التَّأييد وفتح العيون والقلوب لاستقبال صورة الممدوح، أفاض أبو طالب (رضي الله عنه) في هذا الغرض بقصائد ومقطوعات جميلة جذَّابة، أوصل أفكاره الأخرى فيها ضمن هذا القالب، الأمر الذي ساعد على تسريب الخطوط العريضة للدين الجديد إلى النَّاس، وذلك حين ضربت قُريش وحلفاؤها حصارها المحكم الطويل.

ومن الأمثلة على هذا القصائدُ التَّالية:

ألا إنَّ خيرَ النَّاسِ نَفْساً ووالداً ... إذا عُدَّ ساداتُ البريَّة أحمدُ

نبيُّ الإلهِ والكريمُ بأصلِهِ ... وأخلاقِهِ وهو الرَّشيدُ المؤيَّدُ

حزيمٌ عَلَى جُلَّى الْخُطُوبِ كَأَنَّهُ ... شِهَابٌ بِكَفِّيْ قَابِسٍ يَتَوَقَّدُ

مِنْ الأكرمينَ مِنْ لُؤَيِّ بْنِ غَالِبٍ ... إذَا سِيمَ خَسْفاً وَجْهُهُ يَتَرَبَّدُ[٣٥]

طَوِيلُ النَّجادِ خَارِجٌ نِصْفُ سَاقِهِ ... عَلَى وَجْهِهِ يُسْقَى الْغَمَامُ وَيَسْعَدُ

عَظِيمُ الرَّمَادِ سَيِّدٌ وَابْنُ سَيِّدٍ ... يَحُضُّ عَلَى مَقْرَى الضُّيُوفِ وَيَحْشِدُ

وَيبْني لأَفْنَاءِ الْعَشِيرَةِ صَالِحاً ... إذَا نَحْنُ طُفْنَا فِي الْبِلادِ وَيَمْهَدُ

ويبني كثيراً حيثُ كان مِن العِدى ... طِلاعُ المدى لا غيرَ ذلكَ يجهدُ

هـو القائـلُ المُهـدَى بـه كـلُّ مُنسـرٍ ... عظـيمُ اللـواءِ أمـرُه الـدهرَ يُحمَـدُ
إذا قـال قـولاً لا يُعـادُ لقولـهِ ... كـوَحي الكتـابِ في صـفيحٍ يُخلَّـدُ[٣٦]
بجـيشٍ لـه مـنْ هاشِـمٍ يتبعونَـهُ ... يُسـدِّدهُمْ ربُّ الـورى ويؤيِّـدُ
هُـمْ أرجَعُـوا سَـهْلَ بـنَ بَيْضَـاءَ رَاضِـياً ... وَسُـرَّ إمـامُ العـالمينَ مُحَمَّـدُ
تتـابَع فيهـا كـلُّ ليـثٍ كأنَّـه ... إذا مـا مشَـى في رَفْـرفِ الـدرعِ أحـردُ[٣٧]
قَضَوْا مَا قَضَوْا فِي لَـيْلِهِمْ ثُـمَّ أَصْبَحُوا ... عَلَـى مَهَـلٍ وَسَـائِرُ النَّـاسِ رُقَّـدُ
سَـلُوا مـن قُـريشٍ كـلَّ كهـلٍ وأمـردٍ ... وإنْ قـدْ بغَانـا اليـومَ كهـلٌ وأمـردُ
مَتَـى شُـرِّكَ الأَقْـوَامُ فِـي جُـلِّ أَمْرِنَـا ... وَكُنَّـا قَـدِيماً قَبْلَهَـا نُتَـوَدَّدُ
وَكُنَّـا قَـدِيماً لا نُقِـرُّ ظُلامَـةً ... وَنُـدْرِكُ مَـا شِـئْنَا وَلا نَتَشَـدَّدُ
فَيَـا لَقُصَـيٍّ هَـلْ لَكُـمْ فِـي نَفُوسِـكُمْ ... وَهَـلْ لَكُـمْ فِيمَـا يَجِـيءُ بِـهِ غَـدُ
فَـإِنِّي وَإِيَّـاكُمْ كَمَـا قَـالَ قَائِـلٌ ... لَـدَيْكَ الْبَيَـانُ لَـوْ تَكَلَّمْـتَ أَسْـوَدُ[٣٨]

وهي قصيدة اكتملت فيها مظاهر المدح بمنتهى أبعاده السياسيَّة والاجتماعيَّة والدِّينيَّة، الأمر الذي هيَّأ فيه أبو طالب (رضي الله عنه) السامعَ بهذا إلى أعلى مستويات الوعي والإدراك.

وله بيتان آخران يمدح فيهما النبيَّ i ويشيد بأمانته لحمل الرِّسالة السماويَّة وصدقه في القول والفعل، وفيها من ضروب البيان ما يؤشِّر إلى حالة راسخة في التَّعامل ربما خرجت عن لغة عصرها لتتخطى عصوراً أخرى كثرت فيها هذه الضروب:

أنـتَ الأمـينُ أمـينُ اللهِ لا كَـذِبُ ... والصَّـادقُ القـولِ لا لهـوٌ ولا لَعِـبُ
أنـتَ الرَّسـولُ رسـولُ اللهِ نعلمـهُ ... عليـكَ تـنزلُ مـن ذي العـزَّةِ الكُتـبُ[٣٩]

ويقول في مقطوعة أخرى يُلاحظ على أبياتها إطراء واضح تجاوز سمات المدح المعهود لدى الشُّعراء؛ كونها توشَّحتْ بوشاح الأُسس الفنيَّة المبتناة عليها القصيدة العربيَّة:

إذا قيـلَ مَـنْ خَيْـرُ هـذا الـوَرَى ... قَبِـيلاً وأكـرمُهُمْ أُسْـرَهْ
أنـافَ لعبـدِ مُنـافٍ أبٌ ... وفضَّـلهُ هاشِـمُ الغـرَّهْ

لقـــدْ حـــلَّ مَجْـــدُ بَنِـــي هاشِـــمٍ مكـــــانَ النَّعـــــائمِ والنَّثـــــرَهْ
وخـــــيرُ بَنِـــــي هاشِـــــمٍ أحمَـــــدٌ رَسُـــــولُ الإلـــــهِ علـــــى فَتْـــــرَهْ[٤٠]

وهذه المقطوعة على قصرها حملت أروع أنواع المدح بالنبيِّ i وقومه بني هاشم الذين آزر أغلبُ رجالهم الدَّعوة المحمَّديَّة. لكن ممَّا يؤسَف له حقَّاً إحساسُنا التام بالابتسار القسري الذي تعرَّض له مجمل التراث الأدبي الإسلامي، ومنه شعر أبي طالب (رضي الله عنه) كما أسلفنا، وقد كان من المتوقَّع وجود تتمَّة لهذه النتفة الرائعة التي يُستوحَى منها في البيت الأخير أنَّ أبا طالب قد قصدَ الإشارة إلى قوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾[٤١]. وإنْ دلَّ هذا على شيءٍ فإنَّما يدلُّ على تعاهُد أبي طالب (رضي الله عنه) للقرآن الكريم، بحيث انعكستْ آثاره بصورة لافتة للنَّظر على مجمل تراثه الأدبي، وتعمَّقت داخل بنائه الشعري، وأخضعته للغة قرآنيَّة في صورة شعرٍ.

أبو طالب (رضي الله عنه) وأثرُ الهجرة الأولى عليه:

وتجيء الهجرة الأولى، ويرحل جعفر بن أبي طالب (رضي الله عنه) وثُلَّة من المؤمنين معه إلى أرض الحبشة، وتطول الأيَّام، وتكبر المعاناة التي تبرِّح قلب أبيه الطافح بالحبِّ والحنان والإخلاص، ثمَّ يتناهى إلى سمعه أنَّ المشركين أوفدوا إلى النَّجاشي (ملك الحبشة) عمراً بن العاص ومعه آخر ليسلِّم لهما المهاجرين، فيأخذ القلق مأخذه من أبي طالب (رضي الله عنه) وهو لا يجد بدَّاً من البوح به، فتنساب كلماته الملتاعة رقَّة وألماً لتكشف عن مخابئ الإنسانيَّة في ذات هذا الرَّجل العظيم الذي تتداعى أمام عينيه صورُ ثلَّة من المؤمنين وهم يهاجرون بدينهم إلى بلد بعيد، مقاسين آلام الغربة والنفي والقلق على أصحابهم الرَّابضين تحت الإرهاب الوثني والاضطهاد القرشي، فيجسِّد ذلك في مقطوعة بكائيَّة نحسُّ من خلالها طول الحسرة التي تنطلق من البيت الأوَّل؛ لأنَّ الأعداء هم الأقارب، وهم مع ذلك يطاردون إخوانهم حتَّى في البلد النَّائي وجوار الملك الغريب عنهم لساناً ودينا ودماً. والمقطوعة هي:

ألا ليتَ شِعْري كيفَ في النَّاسِ جَعفرٌ وعمـــرٌو وأعـــداءُ الـــنبيِّ الأقـــاربُ

وهـل نـالَ إحسـانُ النَّجاشـيِّ جعفـراً ... وأصـحابَهُ أمْ عـاقَ ذلـكَ شـاغبُ[٤٢]

لـتعلمْ خيـارُ النَّـاسِ أنَّـك ماجـدٌ ... كـريمٌ فـلا يشـقى لـديكَ المجانـبُ

وتعلـمْ بـأنَّ اللهَ زادكَ بسـطةً ... وأسـبابَ خـيرٍ كلَّهـا لـكَ لازبُ[٤٣]

وحين تجيئهُ الأخبار بإكرام النَّجاشي لهم وردِّه وفد المشركين، واحترامه دين المسلمين، وتفاعله مع آيات القرآن الكريم، يفسح المجال ثانيةً لشعرِه الذي يحضُّ فيه ملك الحبشة على اعتناق الإسلام:

تعلَّـمْ مَليـكَ الحـبشِ أنَّ محمَّـداً ... نـبيٌّ كمُوسَـى والمَسـيحِ بـنِ مـريمِ

أتَـى بالهُـدَى مثـلَ الـذِي أتَيَـا بـهِ ... وكُـلٌّ بحمـدِ اللهِ يهـدي ويعصـمُ[٤٤]

وإنَّكـمُ تتلونَـه في كتـابكُمْ ... بصـدقِ حـديثٍ لا الحـديثِ المُـرجَّمِ[٤٥]

ولا تَجْعلُـوا للهِ نـدَّاً وأسْـلِمُوا ... فـإنَّ طريـقَ الحـقِّ لـيسَ بمُظْلـمِ[٤٦]

ويُدلي أحد مؤرِّخي الأدب الإسلامي ونقَّاده بشهادة ناصعة فيقول: (وكانت مؤازرة أبي طالب لا تنحصر في مجابهة المشركين حركياً وقولياً، بل واكبتها مؤازرة أدبيَّة هي صياغة الشِّعر، ويمكن القول بأنَّ خارطة الشِّعر في هذه المرحلة تكاد تنحصر في النِّتاج الذي قدَّمه أبو طالب؛ حيث لم يدخل الإسلام بعد في قلوب الشُّعراء أو الخطباء الجاهليِّين، بل دخل إليها في المرحلة الثانية، مرحلة المدينة والمراحل التي تلتها، أمَّا مرحلة مكَّة فإنَّ أبا طالب يظل هو الشاعر الوحيد الذي استخدم سلاح الشِّعر في مؤازرة الرِّسالة ومجابهة العدو، حتَّى إنَّ نتاجه بدأ يغزر إلى الدرجة التي يمكن أنْ يقال بأنَّ النَّشاط الشِّعري ينحصر في شخصه من هذه المرحلة الخطيرة من حركة الإسلام)[٤٧].

أبو طالب (رضي الله عنه) ومرارةُ الظَّلمِ القرشي:

بعد أنْ صدع الرَّسول الأكرم i برسالة السماء بين ظهراني قريش، بدأت هناك مؤامرات حثيثة ومحاولات خبيثة يقودها أبو سفيان وأبو جهل وعُتبة ومَن لفَّ لفَّهم من زعماء القبائل لاستئصال هذا الدِّين الجديد الذي بشَّرتْ به الأنبياء d ، ومهَّدتْ له الكتب السماويَّة السابقة، فبدأت الهواجس تأخذ مأخذها من أبي طالب (رضي الله عنه) وهو يرى بأمِّ عينيه تلك المؤامرات التي تُحاك وضح النهار لأجهاض هذا المشروع السماوي ووأده.

ومن أجل هذا فقد عبَّر عن خلجاته وما يعتصر في قلبه من ألم وخوف على هذا الدِّين الجديد بقصائد ومقطوعات تكشف عن معاناة الكلمة المقهورة مع المحافظة التامَّة على المضامين التي كان يرومها أبو طالب (رضي الله عنه) من ورائها، وقد اتَّسمت بجدِّيَّة صادقة تشير بأصابع الاتِّهام إلى القسوة الفظَّة الغليظة التي كان يمارسها زعماء وأقطاب الحزب القرشي ضد بني هاشم ومَن تبعهم من المسلمين، مع شحنها بأسلوب جدلي حاذق يجنح إلى استحضار الحجَّة القويَّة على قُريش وحلفائها بعد أنْ طغى المنطق القسري التَّهديدي عندهم.

وأوَّل هذه القصائد هي:

تَطاولَ ليلي بهمٍّ وَصِبْ ... ودَمعٍ كسَحِّ السِّقاءِ السَّرِبْ
للعبِ قُصَيٍّ بأحلامِها ... وهل يَرجِعُ الحلمُ بعدَ اللَّعِبْ
ونفيِ قُصَيٍّ بني هاشِمٍ ... كنفيِ الطُّهاةِ لطافَ الخَشَبْ
وقولٍ لأحمدَ أنتَ امْرُؤٌ ... خَلوفُ الحديثِ ضَعيفُ السَّبَبْ
وإنْ كانَ أحمدُ قد جاءَهُمْ ... بحقٍّ ولم يأتِهِمْ بالكذِبْ
على أنَّ إخوانَنا وازَروا ... بني هاشِمٍ وبني المطَّلِبْ
هُما أخوان كعظمِ اليمينِ ... أمراً علينا بعقدِ الكَرَبْ
فَيا لَقَصيٍّ ألمْ تُخْبَروا ... بمَا حَلَّ بِي مِن شُؤون العرَبْ
فلا تُمْسكُنَّ بأَيديكُمُ ... بُعيدَ الأنوف بعجْبِ الذَّنَبْ
إلامَ إلامَ تَلافَيْتُمُ ... بأمرِ مُزاحٍ وحلمٍ عَزَبْ
ورُمتُمْ بأحمدَ ما رمتُمُ ... على الأصراتِ وقُربِ النَّسَبْ
زَعَمتُم بأنَّكمُ جيرةٌ ... وأَنَّكمُ إخوَةٌ في النَّسَبْ
فكيفَ تُعادونَ أبناءَهُ ... وأهلَ الدِّيانةِ بيتَ الحَسَبْ
فإنَّا ومَنْ حَجَّ مِن راكبٍ ... وكعبةِ مكَّةَ ذاتِ الحُجُبْ
تَنالون أحمدَ أو تَصْطلوا ... ظُباةَ الرِّماحِ وحَدَّ القُضُبْ
وتَعْتَرفوا بينَ أبياتِكُمْ ... صُدورَ العَوالي وخَيلاً عُصَبْ[٤٨]

إذِ الخيـــلُ تَمْـــزَعُ فِي جَرْيِهـــا ... بسَـيرِ العَنيـقِ وحـثِّ الخَبَـبْ[٤٩]

تَـراهُنَّ مـا بـين ضـافٍ السَّـببْ ... قَصـيرَ الحـزامِ طويـلَ اللَّبَـبْ[٥٠]

وجَـــرْداءَ كـــالظَّبيِ سَـــمحوجةٍ ... طَواهـا النَّقـائعُ بعـدَ الحَلَـبْ[٥١]

عَليهـــا كـــرامُ بـــني هاشِـــمٍ ... هُـمُ الأَنجَبـون مـعَ المُنْتَجَـبْ[٥٢]

وقد اعتمد أبو طالب (رضي الله عنه) في قصيدته هذه أسلوباً وصفياً مفعماً بالحجج الدامغة التي من شأنها أنْ تثير عند السامع أكثر من علامة استفهام، مع مراعاة غير خافية للأُسس الفنيَّة المعهودة عند أئمَّة القصيدة العربيَّة، لعلَّ أبرزها استدراكه غير المخل في البيت الخامس لجواب (وإنْ كانَ أحمدُ قد جاءَهُمْ). كلُّ هذا جاء به دون أنْ يخرج عن دائرة مدحه المتواصل لبني هاشم بشكل عام وللنبيِّ i بشكل خاص.

ويبدو أنَّ أبا طالب (رضي الله عنه) كان يستوحي في محاولة خاطفة ومهارة متكاملة كلَّ ما يدور في خلده من مواقف ومشاهد تاريخيَّة كان لها الدور الأمثل والرائد في كشف المواقف العدائيَّة والظُّلامات القَبليَّة ممَّن كانوا بالأمس القريب حلفاء لهم؛ ومن هنا فقد وقف عند تلك الظُّلامات التي نالتهم من قُريش ليصوِّرها للناس أدباً خالداً، ووثيقة تاريخيَّة مفرغة في صورة شعر، ابتدأه من البيت الأوَّل وحتَّى آخر القصيدة، ولعلَّ هذا ناشئ من التَّجربة النفسيَّة التي ألفتْ أبا طالب (رضي الله عنه) بكلِّ صفاته السامية التي تفرَّد بها، وهو ما يسطِّره في قصيدته هذه:

أرِقْـــتَ وقـــد تصـــوَّبتِ النُّجـــومُ ... وبِـــتَّ ومـــا تُســـالُكَ الهُمـــومُ

لظُلـــمِ عَشـــيرةٍ ظَلَمُـــوا وعَقُّـــوا ... وغِـــبُّ عقـــوقِهم كـــلاًّ وخِـــيمُ

هـــمُ انْتَهكـــوا المحـــارمَ مـــن أخـــيهِمْ ... ولـــيسَ لهُـــمْ بغـــيرِ أخٍ حَـــريمُ

إلى الـــرَّحمنِ والكـــرمِ اســـتَذَمُّوا ... وكـــلُّ فَعـــالِهم دَنَـــسٌ ذَمـــيمُ

بَنـــو تَـــيمٍ ثُؤازرُهـــا هُصَـــيصٌ ... ومخـــزومٌ لهـــا منّـــا قَســـيمُ

فـــلا تَنْهـــى غُـــواةَ بـــني هُصَـــيصٍ ... بَنـــو تَـــيمٍ وكلُّهـــمُ عَـــديمُ

ومخـــزومٌ أقـــلُّ القَـــومِ حِلْمـــاً ... إذا طاشَـــتْ مـــن العـــدةِ الحُلـــومُ

أطـاعوا ابـنَ المُغـيرةِ وابـنَ حـرْبٍ ... كـــلا الـــرَّجُلينِ مُـــتَّهَمٌ مُلـــيمُ

وقـــالوا خُطَّـــةً جَـــوْراً وحُمْقـــاً ... وبعـــضُ القَـــولِ أبلـــجُ مُســـتَقيمُ[٥٣]

لَنُخْـــرِجُ هاشِـــماً فيصـــيرُ منـــها ... بلاقـــعَ بَطـــنُ زمـــزَمَ والحَطـــيمُ

فمهـــلاً قَومَنـــا لا تَرْكبونـــا ... بِمَظْلَمـــةٍ لهـــا أمـــرٌ عَظـــيمُ

فينـــدَمَ بعضُـــكُمْ ويـــذلَّ بعـــضٌ ... ولـــيسَ بمُفْلـــحٍ أبـــداً ظَلـــومُ

فـــلا والرَّاقصـــاتِ بكـــلِّ خَـــرْقٍ ... إلى مَعْمـــورِ مكَّـــةَ لا نَـــريمُ[٥٤]

طَـــوالَ الـــدَّهرِ حتَّـــى تقتلونـــا ... ونَقْـــتُلَكُمْ وتلتقـــيَ الخصـــوم

ويُصـــرَعَ حولَـــهُ منَّـــا رجـــالٌ ... وتَمنعَـــهُ الخُؤولـــةُ والعُمـــومُ

ويَعْلـــمَ معشَـــرٌ ظَلَمُـــوا وعَقُّـــوا ... بـــأنَّهمُ هُـــمُ الخـــدُّ اللَّطـــيمُ

أرادُوا قتـــلَ أحمـــدَ ظـــالُمُوْهُ ... ولـــيسَ بقتلِـــهِ فـــيهمْ زَعِـــيمُ

ودونَ مُحمَّـــدٍ منَّـــا نـــديٌّ ... هُـــمُ العـــرنينَ والأنـــفُ الصَّـــميمُ[٥٥]

ولم يكتفِ أبو طالب (رضي الله عنه) في هاتين القصيدتين بما كشفه من معاناة واضطهاد وألم كان يقاسيه وقومه جرَّاء السياسة الجاهليَّة لقريش، بل راح يتدرج في قصيدة أخرى بلُغة توبيخيَّة، وضمن تسلسل فنِّي بعيد عن عناصر الغموض والرمزيَّة، ليرسم لنَا صورةً واضحة المعالم للهموم التي كانت تؤرِّقه وتقضُّ مضجعه وهو يرى المهمَّة التي حملها ابنُ أخيه i على عاتقه عُرضة لكيد المشركين والمتآمرين معهم. والقصيدة قد توفَّرت على جدليَّة هادئة بعيدة عن الانفعالات الوجدانيَّة المنحازة والتي كثيراً ما يلمسها الباحثُ عند شعراء مبرَّزين، وهي إلى ذلك أجدت عليه في إرضاء ضميره الثائر إنْ لم يكن هناك مَن سمع مقالته فوعاها:

ألا مَـــن لهـــمٍّ آخـــرَ الليـــلِ مُعْـــتمِ ... طَـــواني وأخْـــرى الـــنَّجمِ لَّما تَقَحَّـــمِ[٥٦]

طـــواني وقـــد نامـــتْ عُيـــونٌ كـــثيرةٌ ... وســـامرُ أخـــرى قاعـــدٌ لم يُنـــوِّمِ

لأحـــلامِ قَـــومٍ قـــد أرادوا محمَّـــداً ... بظلـــمٍ ومَـــنْ لا يَتَّـــقِ الظُّلـــمَ يُظلَـــمِ

سَـعَوا سَـفَهاً واقتـادَهُم سـوءُ أمـرِهمْ ... علـى خائـلٍ مـن أمـرهمْ غـيرِ مُحكـمِ

رَجـــاءَ أمـــورٍ لم ينـــالوا نِظامَهـــا ... وإنْ نَشَـــدوا في كـــلِّ بَـــدوٍ ومَوْســـمِ[٥٧]

يُرجُّـــونَ منَّـــا خُطَّـــةً دونَ نَيْلِهـــا ... ضِـــرابٌ وطَعْـــنٌ بالوشِـــيجِ المقَـــوَّمِ[٥٨]

يُرجُّـــون أنْ نَســـخَى بقتْـــلِ محمَّـــدٍ ... ولم تختضـبْ سُـمرُ العـوالي مـن الـدَّمِ
كَـــذَبتُمْ وبيـــتِ الله حتَّـــى تُغلَّقُـــوا ... جَمـــاجمَ تُلقَـــى بـــالحَطيمِ وزَمْـــزَمِ
وتُقْطَـــعَ أرحـــامٌ وتَنْسَـــى حَلِيلـــةٌ ... حَلـيَلاً ويُغشَـى مَحْـرَمٌ بَعْـدَ مَحْـرَمِ
وَينـــهضَ قـــومٌ بالحديـــدِ إلـــيكمُ ... يَـذُبُّون عـن أحسـابِهم كـلَّ مُجْـرِمِ
هـمُ الأُسْـدُ أُسْـدُ الـزَّأرتينِ إذا غـدتْ ... علـى حَنَـقٍ لم تَخشَ إعـلامَ مُعلـمِ[٥٩]
فيـا لـبني فِهْـرٍ أَفيقـوا ولم تقُـمْ ... نـوائحُ قَتْلَـى تـدَّعي بالتَّسـدُّمِ[٦٠]
علـى مـا مَضَـى مـن بَغْـيكُم وعُقـوقِكُمْ ... وغشـيانِكُمْ مـن أمرنـا كـلَّ مَـأثمِ
وظلـمِ نـبيٍّ جـاء يـدعُو إلى الهُـدى ... وأمـرٍ أتَـى مِـنْ عنـدِ ذي العـرشِ قَـيِّمِ
فـلا تَحسـبونا مُسْـلميهِ ومثلُـهُ ... إذا كـان في قـومٍ فلـيسَ بمُسْـلَمِ
فهـذي معـاذيرٌ وتَقْدِمـةٌ لكُـمْ ... لكـيلا تكـونَ الحـربُ قبـلَ التَّقـدُّمِ[٦١]

وعلى الرُّغم من محافظة أبي طالب (رضي الله عنه) على أسلوبه الاستعراضي التَّوبيخي، فقد برزت عنده جوانب فنيَّة وجماليَّة لا تخفى، مع إتقان صياغي مُحكم، وتدرُّجٍ هادئ مُدعَم بنَفَسه الطويل المسترسل الذي صافح الأسماع بحرارة، وترك عليها صدىً واقعيًّاً يتردَّد في كلِّ ذهن واعٍ.

وبين أيدينا قصيدة قصيرة قالها أبو طالب (رضي الله عنه) وهو يتألَّم لرجل من الرعيل الأوَّل من الصحابة، ذلك هو عثمان بن مظعون الجمحي، ثمَّ يغضبُ له أشدَّ الغضب وهو يرى قُريشاً تعذِّبهُ وتنال منه، لكن القصيدة كبعض مثيلاتها تفتقد النسيج المترابط الواحد بين أبياتها المختلفة، ولعلَّ مردَّ ذلك إلى سوء انتقاء النَّاقلين واختيارهم من مصادرها الأولى:

أمِـــنْ تـــذكُّر دَهـــرٍ غَـــيرِ مَـــأمُون ... أصْـــبَحْتَ مُكْتَئبـــاً تبْكِـــي كمَحْـــزُون
أمْ مِـــنْ تـــذكُّر أقـــوامٍ ذَوي سَـــفَهٍ ... يغشَـونَ بـالظُّلمِ مَـن يـدعو إلى الـدِّينِ
ألا تَـــــرَوْنَ أذلَّ اللهُ جمعَكُـــــمُ ... أنَّـا غضـبنا لعُثمـان بـنِ مظعـون
ونمنـعُ الضـيمَ مَـنْ يبْغِـي مَضِـيمَتَنا ... بكـــلِّ مُطَّـــردٍ في الكَـــفِّ مَسْـــنُون
ومُرْهَفـــاتٍ كـــأنَّ المِلْـــحَ خَالطَهَـــا ... يُشـفَى بهـا الـداءُ مـنْ هَـامِ المَجـانِينِ
حتَّـــى تقـــرَّ رجـــالٌ لا حلـــومَ لهـــا ... بعـــدَ الصـــعوبةِ بالإسمـــاحِ واللـــينِ

أو تُؤمنُـــوا بكتـــابٍ مُـــنزَلٍ عَجَـــبٍ علـى نـبيٍّ كموسـى أو كـذِي النـون[٦٢]

وأكبر الظنّ أنَّ هناك أيادٍ غيرَ أمينة أسقطت أبياتاً من القصيدة، وبالتحديد قبل البيت الثالث منها، حيث نشعر بحلقة مفقودة بينه وبين البيتين الأوَّلين اللَّذَين صدَّر بهما أبو طالب (رضي الله عنه) قصيدتَه.

والجدير بالذكر أنَّ أسلوب أبي طالب (رضي الله عنه) قد اتَّبعه بجلاءٍ من بعده ـ بل حتَّى في حياته ـ إخوانُهُ وأبناؤه، ولهذا نلاحظ في طيَّات كتب التَّاريخ شواهد تدلُّنا على تأثُّرهم بأسلوبه ومدرسته، ومنها هذه التفة لأخيه العبَّاس بن عبد المطَّلب قالها يخاطبه:

أبَـــى قومُنـــا أنْ يُنصـــفُوْنا فأنْصَـــفَتْ قَواطـــعُ فِي أيْمَاننـــا تَقطـــرُ الـــدِّمَا

تَركْنَـــاهُمُ لا يَسْـــتحلُّونَ بَعْـــدَها لـــذِي رَحِـــمٍ يَومـــاً مِـــنَ الـــدَّهرِ مَحْرَمَـــا

أبـــا طالـــبٍ لا تَقْبـــلِ النِّصـــفَ منـــهُمُ وإنْ أنْصَـــفوا حتَّـــى تعـــقَّ وتظلِمَـــا[٦٣]

وهي أبيات بليغة يجري أوَّلها مجرى المثل.

أبو طالب (رضي اللّه عنه) والدِّفاع المستميت عن النبيِّ i :

حينما تكالبت قُريش وحلفاؤها ضد النبيِّ i ومشروعه الرِّسالي، وواجهوا أبا طالب (رضي الله عنه) في ذلك، لمْ يلن ولمْ يهن، فدعا بني هاشِم وبني عبد المطَّلب إلى مشاركته في الذبِّ عن الرَّسول i والقيام دونه، وكان في ذلك معالناً جريئاً دون أنْ يتسلَّل الخوف إلى نفسه، فاجتمعوا إليه وقاموا معه، فسُرَّ بذلك وطابت نفسه، وتفجَّرت شاعريته، فـ (جَعَلَ يَمْدَحُهُمْ وَيَذْكُرُ قَدِيمَهُمْ، وَيَذْكُرُ فَضْلَ رَسُولِ الله i فِيهِمْ وَمَكَانَهُ مِنْهُمْ؛ لِيَشُدَّ لَهُمْ رَأْيَهُمْ وَلِيَحْدَبُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرِهِ)، فقال:

إذَا اجْتَمَعَـــتْ يَوْمـــاً قُـــرَيْشٌ لِمَفْخَـــرٍ فَعَبْـــدُ مَنَـــافٍ سِـــرُّهَا وَصَـــمِيمُهَا[٦٤]

وإنْ حُصِّـــلَتْ أَشْـــرَافُ كـــلِّ قبيلـــةٍ فَفِـــي هَاشِـــمٍ أَشْـــرَافُهَا وَقَـــدِيمُهَا[٦٥]

وإنْ فَخَـــرتْ يومـــاً فـــإنَّ محمَّـــداً هـــوَ المُصْـــطفى مَـــنْ سِـــرُّها وكريمُهـــا[٦٦]

تَـــدَاعَتْ قُـــرَيْشٌ غَثُّهَـــا وَسَـــمِينُهَا عَلَيْنَـــا فَلَـــمْ تَظْفَـــرْ وَطَاشَـــتْ حُلُومُهَـــا[٦٧]

وَكُنَّـــا قَـــدِيماً لا نُقِـــرُّ ظُلامَـــةً إذَا مَـــا ثَنَـــوْا صُـــعْرَ الخُـــدُودِ نُقِيمُهَـــا[٦٨]

وَنَحْمِـي حِمَاهَـا كُـلَّ يَـوْمٍ كَرِيهَـةٍ ... وَنَضْـرِبُ عَـنْ أَحجارِهَـا مَـنْ يَرُومُهَـا
بِنَـا انْـتَعَشَ العُـودُ الـذَّوِيُّ وَإِنَّمَـا ... بِأَكْنَافِنَـا تَنْـدِى وَتَنْمِـى أرُومُهَـا[٦٩]
هُـمُ السَّـادةُ الأعلَـوْنَ في كـلِّ حالـةٍ ... لهُـمْ صِـرمَةٌ لا يُسْـتطاعُ قرومُهَـا
يَـدينُ لهُـمْ كـلُّ البريَّـةِ طاعَـةً ... ويُكـرِمُهمْ مِـلأرضِ عنـدِي أديمُهـا[٧٠]

وعن الأصبغ بن نباتة قال: (سمعت أمير المؤمنين علياً a يقول: مرَّ رسول الله i بنفر من قُريش وقد نحروا جزوراً ـ وكانوا يسمُّونها الظهيرة ويذبحونها على النَّصب ـ فلم يسلِّم عليهم، فلمَّا انتهى إلى دار الندوة قالوا: يمرُّ بنا يتيم أبي طالب فلم يسلِّم علينا!! فأيُّكم يأتيه فيفسد عليه مصلاَّه؟ فقال عبد الله بن الزبَعْرى السهمي: أنا أفعل. فأخذ الفرث والدم فانتهى به إلى النبيِّ i وهو ساجد، فملأ به ثيابه ومظاهره. فانصرف النبيُّ i حتَّى أتى عمَّه أبا طالب (رضي الله عنه) فقال: ياعمُّ، مَن أنا؟ فقال: ولِمَ يابن أخ؟ فقصَّ عليه القصَّة، فقال: وأين تركتهم؟ فقال: بالأبطح. فنادى أبو طالب (رضي الله عنه) في قومه: يا آل عبد المطَّلب، يا آل هاشِم، يا آل عبد مناف. فأقبلوا اليه من كلِّ مكان ملبِّين، فقال: كم أنتم؟ قالوا: نحن أربعون. قال: خذوا سلاحكم. فأخذوا سلاحهم وانطلق بهم حتَّى انتهى إلى أولئك النفر، فلمَّا رأوه أرادوا أنْ يتفرَّقوا، فقال لهم: وربِّ هذه البنية لا يقومنَّ منكم أحد إلاَّ جللته بالسيف. ثمَّ أتى إلى صفاة كانت بالأبطح فضربها ثلاث ضربات حتَّى قطعها ثلاثة أفهار، ثمَّ قال: يا محمَّد، سألتني مَن أنت؟ ثمَّ أنشأ يقول ويومئ بيده إلى النبي i)[٧١]:

أنـــتَ الـــنبيُّ محمَّـــدُ ... قـــرمٌ أغـــرُّ مســـوَّدُ
لمســـوِّدينَ أكـــارمٍ ... طـــابُوْا وطـــابَ المَوْلـــدُ
نِعـــمَ الأرُوْمـــةُ أصـــلُها ... عمـــرُو الخِضَـــمُّ الأوْحـــدُ[٧٢]
هشَـــمَ الرَّبيكـــةَ في الجفـــان ... وعـــيشُ مكَّـــةَ أنكـــدُ[٧٣]
فَجَـــرَتْ بـــذلك سُـــنَّةٌ ... فيهـــا الخبيـــزَةُ تُثـــردُ
ولنـــا السِّـــقايةُ للحَجِيـــ ... ـــجِ بهـــا يُمـــاتُ العَنجَـــدُ[٧٤]
والمأزمـــان ومـــا حـــوتْ ... عَرفاتُهـــا والمســـجدُ[٧٥]
أنَّـــى تُضَـــامُ ولم أمُـــتْ ... وأنـــا الشُّـــجاعُ العَرْبـــدُ

وبطـــــاحُ مكَّـــــةَ لا يُـــــرَى ... فيهـــــا نجيـــــعٌ أســـــودُ
وبنـــــو أبيـــــكَ كـــــأنَّهمْ ... أُسُـــــدُ العـــــرين تَوقَّـــــدُ
ولقـــــد عهـــــدتُكَ صـــــادقاً ... في القـــــولِ لا تتزيَّـــــدُ
مـــا زلـــتَ تنطـــق بالصـــوابِ ... وأنـــتَ طفـــلٌ أمـــردُ[٧٦]

وهي قصيدة يشوبُها الانفعال، ويتَّضح عليها الارتجال في مفرداتها وبنائها، ممَّا أعطاها سمةً مميَّزةً. (وقد ضحَّى أبو طالب حتَّى بمكانته الاجتماعيَّة التي كان يحظى بها، في مجتمع يهتمُّ بالعناوين القبليَّة والزعامة العشائريَّة، وقد ذاق أبو طالب المحن من أجل رسالة الله تعالى، حتَّى كان بحقٍّ الدرع الواقي للرَّسول i والدَّعوة، في حين كانت المكانة الاجتماعيَّة حلم الرِّجال ومبتغاهم في ذلك المجتمع القبلي المادي)[٧٧].

وحينما يرى رسولَ الله i يخطر أمام عينيه اللتين أتعبتهما العناية والسهر، تتجدَّد فيه العزيمة والإصرار، فيرسل أحاسيسه كلمات أبديَّة تكشف عن إيمانٍ صادق بدعوة النبيِّ i :

واللهِ لـــنْ يَصـــلُوا إليـــكَ بجمعِهـــمْ ... حتَّـــى أوَسَّـــدَ في التُّـــرابِ دَفينـــا
فاصـــدَعْ بـــأمرِك مـــا عليـــكَ غَضاضـــةٌ ... وابشِـــرْ بـــذاكَ وقـــرَّ منـــهُ عُيونـــا[٧٨]
ودَعَـــوْتَني وزَعمـــتَ أنَّـــكَ ناصـــحٌ ... ولقـــد صـــدقْتَ وكنـــتَ ثَـــمَّ أَمينـــا
وعَرضْـــتَ دِينـــاً قـــد علمـــتُ بأنَّـــهُ ... مِـــن خـــيرِ أديـــان البريَّـــةِ دِينـــا
لـــولا المَلامـــةُ أو حِـــذاري سُـــبَّةً ... لوجَـــدْتني سَـــمحاً بـــذاكَ ضَـــنينا[٧٩]

ويقول في أخرى حينما أراد المشركون مقايضة النبيِّ i بعمارة بن الوليد، فردَّهم أعنف ردٍّ، كاشفاً سوءة غبائهم بقوله: ((أتعطوني ابنكم أغذوه لكم، وتأخذون ابني تقتلونه؟! هذا والله ما لا يكون ابداً... أتعلمون أنَّ النَّاقة إذا فقدتْ ولدها لا تحنُّ إلى غيره؟!)[٨٠]:

يقولـون لي دعْ نصـرَ مَـنْ جـاء بالهُـدى ... وغالـــبْ لنَـــا غـــلاَّب كـــلِّ مُغالـــبِ
وســـلِّمْ إلينـــا أحْمَـــداً واكْفِلَـــنْ لنَـــا ... بَنيَّـــاً ولا تَحْفَـــلْ بقَـــولِ المُعاتـــبِ
فقُلْـــتُ لهـــمْ اللهُ ربِّـــي وناصِـــري ... علـــى كـــلِّ بـــاغٍ مِـــنْ لُـــؤيِّ بـــنِ غالـــبِ[٨١]

وعن محافظته الدائبة العجيبة، ورعايته للنبيِّ الكريم i ، يُحدِّثنا قائلاً:

مَنعْنـــا الرَّســـولَ رَسُـــولَ المَليـــكِ ... ببِـــيضٍ تَـــلألأُ لَمـــعَ الـــبروقِ
بضـــربٍ يُـــذِيبُ دُهُـــونَ النِّهـــابِ ... حَـــذارِ الوَتـــائرِ والخَنْفَقِيـــقِ[٨٢]
أذبُّ وأحمِـــي رَســـولَ الإلـــهِ ... حِمايـــةَ حَـــامٍ عليـــهِ شَـــفِيقِ
ومـــــا إنْ أذبُّ لأعْدَائـــــهِ ... دَبيـــبَ البكـــارِ حَـــذارِ الفَنيـــقِ[٨٣]
ولكـــنْ أزيـــرُ لهُـــمْ سَـــامِياً ... كمـــا زارَ ليْـــثٌ بغَيـــلٍ مُضِـــيقِ[٨٤]

وفي نظرة واعية إلى هذه القصائد والمقطوعات نرى أنَّها تشترك في إسلاميَّة الأسلوب والخطاب، وتناولها مفردات عديدة في التَّعبير عن ذلك، مع المحافظة التامَّة على إيجاد قرائن حاليَّة أو لفظيَّة فيها تُنبئ عن إرادة المعنى الذي كان يقصده أبو طالب (رضي الله عنه) منها، فهي لا تهبط عن القصائد الطوال جودةً ووضوحاً واقتراباً من نَفَس الشِّعر السائد، مع انسيابها في إلماعات متجدِّدة متطوِّرة عن غيرها، تسند أسلوب الحِجاج الذي درج عليه شعر أبي طالب (رضي الله عنه)، وربما كان بعضها مستلاً من قصائد مضيَّعة، أو هي مقطوعات لها أجواؤها الخاصَّة من ارتجال وانفعال، ومنها:

زَعَمَـــتْ قُـــريشٌ أنَّ أحمَـــدَ سَـــاحرٌ ... كَـــذبُوا وربِّ الرَّاقصـــاتِ إلى الحَـــرَمْ
مـــا زلـــتُ أعرفُـــهُ بصـــدقِ حديثـــهِ ... وهـــو الأمـــينُ علـــى الخرائـــبِ والحُـــرَمْ
بَهَثـــوهُ لا سُـــعِدُوا بقطـــرٍ بعـــدَها ... ومَضَـــتْ مقـــالتُهُمْ تسـيرُ إلى الأُمـــمْ[٨٥]

ويقول في قصيدة أخرى تقطر حماسةً وفخراً وثأراً، وقد ساهمت في شحذ الهمم واستنهاض العزائم مع انتقاد صارخ جاء بلُغة تعنيفيَّة توبيخيَّة لها من الدور الفاعل المُحرِّض:

أفيقُـــوا بَـــني غالـــبٍ وانْتَهُـــوا ... عـــنِ البَغْـــيِ في بَعـــضِ ذَا المنطـــقِ
وإلاَّ فـــــإنِّي إذنْ خـــــائفٌ ... بوائـــــقَ في داركُـــــمْ تلتقـــــي
تكـــــونُ لغيركـــــمُ عِـــــبرةً ... وربِّ المغـــــاربِ والمشـــــرقِ
كمـــا نـــالَ مَـــنْ كـــان مِـــنْ قـــبلِكُمْ ... ثمـــودُ وعـــادٌ فمَـــن ذَا بَقـــي
غـــداةَ أتـــاهمْ بهـــا صَرْصـــرٌ ... وناقـــةُ ذي العـــرشِ قـــدْ تَسْـــتقي

فحـــلَّ علـــيهمْ بهـــا سَـــخطةٌ ... مِـــــنَ اللّهِ في ضَـــــربةِ الأزرقِ
غـــــداةَ يعـــــضُّ بعُرقوبِهـــــا ... حُسَـــاماً مـــنِ الهنـــدِ ذَا رَونـــقِ[٨٦]
وأعجـــبُ مِـــنْ ذَاكَ مِـــنْ أمـــركُمْ ... عَجائـــبُ في الحَجَـــرِ المُلصـــقِ
بكـــفِّ الـــذي قـــامَ مِـــنْ جَنْبـــهِ ... إلى الصَّـــابرِ الصَّـــادقِ المتَّقـــي
فأيبسَـــــــهُ اللّهُ في كفِّـــــــهِ ... علـــى رُغْمـــهِ الجـــائرِ الأحمـــقِ
أُحيمـــقُ مخـــزومِكُمْ إذْ غَـــوى ... لِغـــيِّ الغُـــوافِ ولمْ يَصـــدُقِ[٨٧]

ولا يخفى أنَّ التَّضمين لقصص عاد وثمود كما في هذا البيت:

كمـــا نـــالَ مَـــنْ كـــان مِـــنْ قـــبلِكُمْ ... ثمـــودُ وعـــادٌ فمَـــن ذا بقـــي

وارتباط ذلك بطبيعة المناخ الاجتماعي الذي تحياه الرِّسالة، أي موقف المشركين (قُريش بخاصَّة) من الإسلام، وتهديدهم بالمصائر التي لحقت المجتمعات البائدة المشار إليها، كلُّ ذلك يشكِّل عنصراً إثارياً في صياغة النَّص، ممَّا يعمِّق من تذوّق المتلقّي، ويمنح النَّص سمة الجمال التي تميز العبارة الأدبيَّة عن سواها، ويحقِّق مزيداً من الإثارة عندما نلحظ استخدامه بدقَّة[٨٨].

وعلى الوتيرة المعهودة في مجمل شعره يقول قصيدةً عصماء أخرى في الغرض نفسه، وقد ختمها بخاتمة تكشف عن شدَّة تفانيه وقومه في الدِّفاع عن الرِّسول i :

ألا أبْلِغـــا عَنِّـــي لُؤيَّـــاً رِسَـــالةً ... بحـــقٍّ ومـــا تُغـــني رســـالةُ مُرســـلِ
بـــني عَمِّنـــا الأدْنَـــيْن فيمـــا يخصُّـــهُمْ ... وإخوانُنـــا مـــن عبـــدِ شمـــسٍ ونوفـــلِ
أظـــاهرتُمُ قومـــاً علينـــا سَـــفَاهَةً ... وأمـــراً غَويَّـــاً مِـــنْ غُـــوافٍ وَجُهَّـــلِ
يقولـــونَ لـــو أنَّـــا قَتَلنَـــا مُحَمَّـــداً ... أقـــرَّتْ نواصِـــي هاشِـــمٍ بالتـــذلُّلِ
كَـــذبتمْ وربِّ الهَـــدْيِ تَـــدمَى نحـــورُهُ ... بمَكَّـــةَ والبيـــتِ العتيـــقِ المُقَبَّـــلِ
تنالوئـــهُ أو تصـــطَلُوا دونَ نَيْلِـــهِ ... صـــوارمَ تَفْـــرِي كـــلَّ عُضْـــوٍ ومفصِـــلِ
فمهـــلاً ولَمَّـــا تنـــتجُ الحـــربُ بكْرَهـــا ... بخيـــلٍ تمـــامٍ أو بـــآخرَ مُعْجِـــلِ[٨٩]
فإنَّـــا متَـــى مـــا نُمْرِهـــا بســـيوفِنا ... نجـــالحْ فنُعـــرِكْ مَـــن نشـــاءُ بكلْكَـــلِ[٩٠]

وتلقَــوا ربيــعَ الأبطحَــينِ محمَّــداً ... علــى ربــوةٍ في رأسِ عيطاءَ عيطـلِ[٩١]

وتــأوي إليــه هاشِــمٌ إنَّ هاشِــماً ... عــرانينُ كعــبٍ آخــراً بعــدَ أوَّلِ

فــإنْ كُنْــتُمُ تَرْجُــوْنَ قتــلَ مُحمَّــدٍ ... فَرُوْمُــوا بمَــا جمَّعــتُمُ نقــلَ يَــذبُلِ

فإنَّــا ســنَحْميهِ بكُــلِّ طِمِــرَّةٍ ... وذِي مَيعــةٍ نهــدَ المراكــلِ هيكــلِ[٩٢]

وكُــلِّ رديــنيٍّ ظمــاءٍ كعوبُــهُ ... وعَضــبٍ كإيمــاضِ الغمامــةِ مقصــلِ[٩٣]

وكُــلِّ جــرورِ الــذَّيلِ زَغــفٍ مُفاضُــهُ ... دِلاصٍ كهزهَــازِ الغــديرِ المُسلســلِ[٩٤]

بأيمــان شــمٍّ مــنْ ذَوائــبِ هاشِــمٍ ... مغاويــلَ بالأخطــارِ في كــلِّ محفــلِ[٩٥]

وفي قصيدة أخرى حاول فيها أنْ يُحلّق فوق أجواء التعريض والحطّ من المشركين الذين لم يتوانوا ولو للحظة واحدة من إظهار العداوة لهذا الدّين الجديد، ومطالبة أبي طالب (رضي الله عنه) بتسليم النبيّ i لهم، والكفّ عن حمايته والدّفاع عنه، يقول أيضاً[٩٦]:

ألا أبلــغْ قُريشــاً حيــثُ حلَّــتْ ... وكــلُّ ســرائرٍ منــها غــرورُ

فــإنِّي والضــوابحُ غادياتٍ ... ومــا تتلُــو السفاســرةُ الشُّــهورُ[٩٧]

لآلِ محمَّــدٍ راعٍ حفــيظٌ ... وودُّ الصَّــدرِ منِّــي والضــميرُ

فلســتُ بقــاطعٍ رَحِمــي ووُلــدِي ... ولــو جــرَّتْ مظالمَهــا الجــذورُ

أيــأمرُ جمعُهــمْ أبنــاءَ فهــرٍ ... بقتــلِ محمَّــدٍ والقــولُ زورُ

فــلا وأبيــكَ لا ظفــرتْ قُــريشٌ ... ولا لقيــتْ رشــاداً إذْ تُشــيرُ

بُــنيَّ أخــي ونَــوطُ القلــبِ منِّــي ... وأبــيضُ مــاؤهُ غَــدَقٌ كــثيرُ

ويشــربُ بعــدَهُ الولْــدانُ ريَّــاً ... وأحمــدُ قــدْ تضــمَّنهُ القُبــورُ

أيــا ابــنَ الأنــفِ أنــفِ بَنــي قُصــيٍّ ... كــأنَّ جبينَــكَ القمــرُ المــنيرُ[٩٨]

وله من قصيدة نكادُ نجزم بضياع قسم منها، يدلُّ على ذلك تقطُّع سلسلة أفكاره بين مقطع وآخر، ونظنُّ أنَّها من أقدم قصائده التي قالها بحقّ النبيّ الكريم i ؛ لأنَّ ألفاظها وأسلوبها يمتّان بصلة إلى ألفاظ المعلّقات وأساليبها، وهذا الرَّأي ينطبق على ملحمته اللاميَّة الخالدة أيضاً، لكنَّه لا يعني عدم النزوع فيها إلى التَّجديد ومحاولة الخروج كما مرَّ في القصائد المتقدّمة:

لِمَـــنْ أربـــعٌ أقـــوينَ بـــينَ القـــدائمِ ... أقمْـــنَ بمـــدحاةِ الرِّيـــاحِ الرَّمـــائمِ[٩٩]

فكلَّفـــتُ عَينـــي بالبكـــاءِ وخِلـــتُني ... قدْ انزفْتُ دَمعي اليومَ بينَ الأصارمِ[١٠٠]

وكيـفَ بُكـائي في الطُّـلـولِ وقـدْ أتـتْ ... لهـا حِقَـبٌ مُـذْ فارقـتْ أمَّ عاصـمِ

غفاريَّـــةً حلَّـــتْ ببـــولانَ حَلَّـــةً ... فَيَنْبـعَ أو حلَّـتْ بهَضـبِ الرَّجـائمِ[١٠١]

فـدعْها فقـدْ شـطَّت بهـا غُربـةُ النَّـوى ... وشـعثٌ لشـتِّ الحـيِّ غـيرُ ملائـمِ

فبلِّـغْ علـى الشَّـحناءِ أفنـاءَ غالـبٍ ... لؤيَّـاً وتَيْمـاً عنـدَ نصـرِ الكـرائمِ

لأنَّـا سـيوفُ اللهِ والمجـدُ كلُّـهُ ... إذا كـانَ صـوتُ القـومِ وجـيَ الغمـائمِ

ألمْ تعلمُـوا أنَّ القطيعـةَ مـأثمٌ ... وأمـرُ بـلاءٍ قـاتمٌ غـيرُ حـازمِ[١٠٢]

وأنَّ سـبيلَ الرُّشـدِ يُعلـمُ في غـدٍ ... وأنَّ نعـيمَ الـدَّهرِ لـيسَ بـدائمِ

فـلا تسـفَهَنْ أحلامَهـمْ في محمَّـدٍ ... ولا تتبعُـوا أمـرَ الغُـواةِ الأشـائمِ

يُمنُّـوكُمُ أنْ تقتلُـوهُ وإنَّمـا ... أمـانيِّكُمْ تلْكُـمْ كـأحلامِ نـائمِ

فـإنَّكمُ واللهِ لا تقتلونَـهُ ... ولَّا تـرَوا قطفَ اللحَى والغلاصـمِ[١٠٣]

ولمْ تُبصـروا الأحيـاءَ مـنكمْ ملاحمـاً ... تحـومُ عليهـا الطـيرُ بعـدَ ملاحـمِ

وتـدعُو بأرْحـامٍ أواصـرُ بينَنَـا ... فقـد قطَّـع الأرحـامَ وقـعُ الصَّـوارمِ

ونسـمُو بخيـلٍ بعـدَ خيـلٍ تحثُّهـا ... إلى الـرَّوعِ أبنـاءُ الكُهـولِ القمـاقمِ[١٠٤]

مـن البـيضِ مفضـالٌ أبيٌّ علـى العِـدى ... تمكَّـنَ في الفـرعينِ مِـنْ حـيِّ هاشِـمِ

أمـينٌ مُحـبٌّ في العبـادِ مسـوَّمٌ ... بخـاتمِ ربٍّ قـاهرٍ للخـواتمِ

يـرى النَّـاسَ بُرهانـاً عليـهِ وهيبـةً ... ومـا جاهـلٌ أمـراً كـآخرَ عـالمِ

تطيـفُ بـه جُرْثومـةٌ هاشِـميَّةٌ ... تـذبِّبُ عنـهُ كـلَّ عـاتٍ وظـالمِ

زعمـتمْ بأنَّـا مُسـلمُوْنَ محمَّـداً ... ولَّـا نُقـاذفْ دونَـهُ ونُـزاحمِ

نـبيٌّ أتـاه الـوحيُ مِـنْ عنـدِ ربِّـهِ ... فمَـنْ قـالَ لا يقـرعْ بها سِـنَّ نـادمِ[١٠٥]

وتشترك هذه القصائد بلغتها العفويَّة الحارة القويَّة التي تبسط القول بأناة وهيمنة تكاد تبهر الأسماع وتقود إليها المشاعر؛ لأنَّها تمتاحُ من عمقِ نفس صافية مستقرَّة لا تُرى للقلق والزيغان فيها نأمةٌ واحدة، وهي في ثرائها وعنفوانها وجزالتها تشكِّل كغيرها من شعر أبي

طالب (رضي الله عنه) منهجاً شعرياً متميِّزاً، ولا عجبَ في ذلك وقد علمنا أنَّه ولد وعاش في أمِّ القرى بين أسرة عريقة مبدعة كأسرة عبد المطَّلب المتوافرة على مقوِّمات النبوغ والعبقريَّة، شأنها شأن نظائرها التي تمتلك ما امتلكت من عمق تاريخي ديني اجتماعي عريق.

ولأبي طالب (رضي الله عنه) إخوةٌ وأبناءُ عمومةٍ يسيل الشِّعر على أفواههم متدفِّقاً، قلَّ أنْ نجد بينهم مَن نضبتْ قريحتُه أو غارت ملكتُه؛ لذلك فشعر أبي طالب (رضي الله عنه) عامَّة قوي الصنعة، غنيُّ الدلالة، في لغته اعتدادٌ وثراء، يُذكِّر بفحول الجاهليَّة، متناولٌ أغراضاً مختلفة في قوالب متينة.

أبو طالب (رضي الله عنه) والفخر بقومه:

حين تستكمل صورة المستقبل خيوطها في ذهن أبي طالب (رضي الله عنه)، يطول تأمُّله وهو يحكم خطط تحركه، في الوقت الذي يسدُّ الثغرات التي من الممكن أنْ تُخترق فينهدم كلُّ ما يبني. وحين يرسو على قرارات مدروسة بعناية ودقَّة، يطلق لحركته الزمام، فنراه أوَّلاً يُثبت مكانة بني هاشم باستمرار في قطب الجزيرة العربيَّة (مكَّة)، مستعيداً المواقف والفضائل التي يتحدَّث بها النَّاس بإكبار، ولكنَّه يخشى عليها من تقادم الزَّمن، ويخاف أنْ تصل أشعَّتها ضعيفة إلى الأجيال اللاحقة، فينطلق في هذا الاتجاه الذي سيكون له أثر عميق في تقبُّل النَّاس نبوَّةَ وزعامةَ واحدٍ من رجال هذا البيت العريق، بيتِ بني هاشم، فنسمعه يقول:

الحمدُ للَّه الذي قد شَرَّفَا ... قَومي وأعلاهُم معاً وغَطْرَفَا
قَد سَبَقوا بالمجدِ مَن تَعَرَّفَا ... مَجْداً تليداً واصلاً مُسْتَطرفَا[١٠٦]
لو أنَّ أنفَ الرِّيحِ جاراهُمْ هَفَا ... وصارَ عَن مَساعاتِهِمْ مُخلَّفَا
كَفَوا سعاةَ الشَّيءِ مَنْ تكلَّفَا ... كانُوا لأهلِ الخافِقَينِ سَلفَا
وأصبحُوا مِنْ كُلِّ خَلقٍ خَلَفَا ... هُمْ أَنْجمٌ وأبدُرٌ لَنْ تُكْسَفَا
ومَوقِفٌ في الحربِ أَسنَى مَوْقِفَا ... أُسْدٌ تَهُدُّ بالزَّئيراتِ الصَّفَا
تُرغمُ مِن أعدائهنَّ الأُنُفَا ... وتدفعُ الدَّهْرَ الذي قَد أَجْحَفَا

لــو عُــدَّ أَدْنَــى جُــودِهِمْ لأَضْــعَفَا علــى البحــارِ والسَّــحابَ اسْــتَرْعفَا[١٠٧]

ونلاحظ هنا القيمة الفنيَّة التي أبدعها أبو طالب (رضي الله عنه) في هذا البيت: (لو أنَّ أنفَ الرِّيح جاراهُمْ هَفَا)، وكذلك في (وتدفعُ الدهرَ الذي قَد أَجْحَفَا)، وهذا ما يجعلنا نؤكِّد على أنَّ أبا طالب (رضي الله عنه) قد فتح في جدار الشِّعر الجاهلي الضخم الفخم ثغرات إبداع جديد.

ويواصل أبو طالب (رضي الله عنه) الطرق على هذا الغرض في قصائد عديدة، إلاَّ أنَّه في كلِّ مرَّة يغلق نقاط الاختراق الممكنة، ويحكم سدَّها بعناية فائقة. وليس أدلُّ على ذلك من تحذيراته المتكرِّرة من خطر بني أميَّة، وإشادته الدائمة بشرف هاشم وسؤددها، وفي كلِّ ذلك حشدٌ لتأييد الرَّأي العام المكِّي لئلاَّ ينساق النَّاس وراء أبناء أميَّة الذين لا يشكُّ أبو طالب (رضي الله عنه) لحظةً واحدةً في تصدِّيهم الحاقد لدعوة ابن أخيه، لا سيما وأنَّ في القصيدة تصريحاً بعدم صحَّة نسب أميَّة، وأنَّه لصيق وليس صريحاً، وهذا ما يؤكِّده الإمام عليٌّ a في كتابه إلى معاوية الذي يقول فيه: ((لَيْسَ أُمَيَّةُ كَهَاشِمٍ، وَلا حَرْبٌ كَعَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَلا أَبُو سُفْيَانَ كَأَبِي طَالِبٍ، وَلا الْمُهَاجِرُ كَالطَّلِيقِ، وَلا الصَّرِيحُ كَاللَّصِيقِ، وَلا الْمُحِقُّ كَالْمُبْطِلِ...))[١٠٨]. أمَّا القصيدة فهي:

ألا لَيتَ حظِّي من حِياطَةِ نَصْرِكُمْ بأنْ ليسَ لي نفعٌ لديكُمْ ولا ضُرُّ
وسارٍ برَحْلي فاطرُ النَّابِ جاشمٌ ضَعيفُ القُصَيْرى لا كبيرٌ ولا بكرُ
مِنْ الخُورِ حَبْحَابٌ كَثِيرٌ رُغَاؤُهُ يُرَشُّ عَلَى الحاذينَ مِنْ بَوْلِهِ قَطْرُ[١٠٩]
تَخَلَّفَ خَلْفَ الوِرْدِ لَيْسَ بِلاحِقٍ إذَا مَا عَلا الفَيْفَاءَ قِيلَ لَهُ وَبْرُ[١١٠]
أَرَى أَخَوَيْنَا مِنْ أَبِينَا وَأُمِّنَا إذَا سُئِلا قَالا إلَى غَيْرِنَا الأَمْرُ
بَلَى لَهُمَا أَمْرٌ وَلَكِنْ تَرَجَّمَا كَمَا رجَمَتْ مِنْ رَأسِ ذِي العَلَقِ الصَّخْرُ
أَخُصُّ خُصُوصاً عَبْدَ شَمْسٍ وَنَوْفَلاً هُمَا نَبَذَانَا مِثْلَ مَا يُنْبَذُ الجَمْرُ
هُمَا غَمَزَا لِلقَوْمِ فِي أَخَوَيْهِمَا فَقَدْ أَصْبَحَا مِنْهُمْ أَكُفُّهُمُ صِفْرُ
هُما أَشْرَكا فِي المجدِ مَنْ لا أبا لَهُ مِنَ النَّاسِ إلاَّ أنْ يُرَسَّ لَهُ ذِكرُ[١١١]
رِجالٌ تَمالَوْا حاسدينَ وبِغْضَةً لأهلِ العُلا فَبينَهُمْ أبداً وِتْرُ

وليـــدٌ أبـــوه كـــانَ عبـــداً لجـــدِّنا ... إلى عِلجَـــةٍ زَرقـــاءَ جـــالَ بهـــا السِّـــحْرُ
وَتَـــيْمٌ وَمَخْـــزُومٌ وَزُهْـــرَةُ مِـــنْهُمُ ... وَكَـــانُوا لَنَـــا مَـــوْلىً إذَا بُغِـــيَ النَّصْـــرُ
فَقَـــدْ سَـــفُهَتْ أَحْلامُهَـــا وَعُقُولُهَـــا ... وَكَـــانُوا كَجَعـــرٍ بِـــئْسَ مَـــا صَـــنَعَتْ جَعْـــرُ
فَـــوَاللّه لا تَنْفَـــكُّ مِنَّـــا عَـــدَاوَةٌ ... لا مِـــنْهُمُ مَـــا كَـــانَ مِـــنْ نَسْـــلِنَا شَـــقْرُ (١١٢)

ومن الثابت والمعروف أنَّ بيت هاشم هو الشَّرف الباذخ والمحل الرَّفيع، بدءاً من أوَّل وثيقة في هاشم (عَمْرُو الذي هَشَمَ الثَّريدَ لِقَوْمِه)(١١٣)، ومروراً بعبد المطَّلب ـ شيبة الحمد ـ الذي يقول فيه عمرو النَّجاري بن بياضة:

وَلَـــدْنَاكَ يـــا شَـــيْبَةَ المَكْرُمـــاتِ ... ســـــــاقيَ زُوَّارِ أرضِ الحَـــــــرَمْ
فـــأكرِمْ بسَـــيبِكَ بيـــتَ الألـــهِ ... وأنـــتَ بنفسِـــكَ بيـــتُ الكَـــرَمْ (١١٤)

وانتهاءً بذرِّيتهم الصالحة التي وهبها الله النبوَّة والإمامة أبد الدهر. وهذا الغرض الذي تناوله أبو طالب (رضي الله عنه) قد آتى ثماره، فإنَّنا نسمع له صدىً ينطلق من الزُّبير بن عبد المطَّلب على الشاكلة نفسها:

لقـــدْ عَلِمَـــتْ قُـــريشٌ أنَّ بَـــيْتي ... بحيـــثُ يكـــونُ فضـــلٌ مـــنْ نظـــامِ
وأَنَّـــا نحـــنُ أكرمُهَـــا جُـــدُوداً ... وأصـــبرُها علـــى العُجُـــمِ العِظـــامِ
وأَنَّـــا نحـــنُ أوَّلُ مَـــنْ تبَنَّـــى ... بمكَّتِنـــا البيـــوتَ مَـــعَ الحَمـــامِ (١١٥)

وهي أبياتٌ جميلة أجاد شاعرها في إبداعها ضمن ألفاظ سهلة ووزن شعري متناغم معها بانسجام وإحكام.

أبو طالب (رضي الله عنه) والحصار الجائر:

في اليوم الأوَّل من محرَّم الحرام للسنة السابعة من البعثة النَّبويَّة كانت محنة الحصار في شعب أبي طالب (رضي الله عنه)، وذلك بعد أنْ باءت محاولات قُريش بالفشل من ثني النبيِّ i ومَن آمن معه عن هذا الأمر، أو تراجعهم تحت سياسة التَّرهيب والترغيب والحرب النفسيَّة والدعائيَّة التي وضعت آمالها فيها. وبعد أنْ علمتْ قُريش أنَّهم لا يقدرون على قتل الرَّسول i ، وأنَّ أبا طالب (رضي الله عنه) لا يمكن أنْ يُسلِّمه إليهم، وسمعت بتهديده وتوعُّده زعاماتهم بقوله: ((والله لو قتلتموه ما أبقيتُ منكم أحداً حتَّى نتفانى نحن

وأنتم))[١١٦]، قرَّروا أنْ يقاطعوا بني هاشم مقاطعة اقتصاديَّة واجتماعيَّة، وكتبوا صحيفةً بذلك وختموها بثمانين ختماً وعلَّقوها في جوف الكعبة[١١٧].

وكان هذا الحصار من أقسى العقوبات التي طبَّقتها قريش على بني هاشم على وجه الخصوص، والواضح أنَّها كانت تعبِّر عن عَداء سافر وإحن وأحقاد ظلَّت متأجِّجة في نفوسهم منذ اليوم الأوَّل من عمر الرِّسالة. وحين اشتدَّ الأذى والعُسر ببني هاشمٍ ومَن كان معهم في الشِّعب، جاء النَّصر المؤزَّر الذي مَنَّ الله تعالى به على رسوله والمسلمين، حيث سلَّط الأرضة لتأكل ما كتبوا من نفاق وما تعاهدوا عليه من شرٍّ وعدوان، فيسخِّره أبو طالب (رضي الله عنه) شعراً ضمن استفادة قصوى من هذا الحدث في إعلام الرِّسالة الكبير بما يُقلُّ من صدق وتوافق بين الألفاظ والمعاني، واعتماد على صيغ بالغة التَّأثير في الخطاب، واستقصاء للوصف والخيال، والتشبيه والحكاية، والتفات إلى مواطن الكناية والتصريح، وتتبُّع للأدلَّة في الرَّأي وتحسينها وإبرازها بصور متوافقة متَّسقة، مع اطِّراد مستمر في الجزالة دون وهن أو انقطاع نفس وانبهار مقدرة، وها هو يبثُّ نجواه وهمومه:

أَلا مَـن لهـمٍّ آخِـرَ الليـلِ مُنْصِـبِ ... وشِـعْبِ العصـا مـن قومـكِ المتَشَـعِّبِ

وجَـرْبى أراهـا مـن لـؤيِّ بـنِ غالـبٍ ... مَـتى مـا تُزاحِمُهـا الصَّحيحةُ تُجـرَبِ

إذا قـائمٌ في القـومِ قـامَ بِخُطَّـةٍ ... أقاموا جميعاً ثمَّ صاحوا وأَجْلَبوا[١١٨]

ومـا ذنـبُ مـن يَـدْعو إلى اللّه وحـدَهُ ... وديـنٍ قـديمٍ أهلُـه غـيرُ خُيَّـبِ

ومـا ظُلْـمُ مَـن يَـدْعو إلى البِـرِّ والتُّقَـى ... ورأبُ الثأى بـالرأي لا حـينَ مَشْعَبِ[١١٩]

وقـد جُرِّبـوا فيمـا مَضـى غِـبَّ أمـرِهِمْ ... ومـا عـالمٌ أمـراً كمَـنْ لم يُجَـرِّبِ

وقـد كـانَ في أمـرِ الصَّـحيفةِ عِـبرَةٌ ... أتـاكَ بِهـا مِـن عائـبٍ مُتَعَصِّـبِ

مَحـا اللّهُ مِنـها كُفْـرَهُم وعُقُـوقَهُمْ ... ومـا نَقَمـوا مِـن صـادِقِ القَـوْلِ مُنْجِـبِ

وأصـبحَ مـا قـالوا مِـنَ الأمـرِ بـاطلاً ... ومَـنْ يختلـقْ مـا لـيسَ بـالحقِّ يُكـذَبِ

فأمسـى ابـنُ عبـدِ اللّهِ فينـا مُصَـدَّقاً ... علـى سـاخطٍ مِـنْ قَومِنـا غـيرِ مُعتَـبِ

فـلا تحسِـبُونا خـاذِلينَ محمَّـداً ... لِـذي غُرْبـةٍ منَّـا ولا مُتَقـرِّبِ

سَـتَمنَعُه منَّـا يـدٌ هاشِـمِيَّةٌ ... مُركَّبُهـا في المجـدِ خـيرُ مركَّـبِ

ويَنصُـرُهُ اللهُ الـذي هـوَ ربُّـهُ ... بأهـلِ العُقَيْـرِ أو بسـكَّان يَثْـربِ
فـلا والـذي يُحدى لـهُ كـلُّ مُـرْثَمٍ ... طَلـيحٍ بجـنَبيْ نخلـةٍ فالمُحَصَّـبِ[١٢٠]
يمينـاً صَـدَقْنا اللهَ فيهـا ولم نكُـنْ ... لنحلِـفَ بُطـلاً بـالعتيقِ المُحَجَّـبِ
نُفارقُـهُ حتَّـى نُصـرَّعَ حَوْلَـهُ ... ومـا بـالُ تكـذيبِ الـنبيِّ المُقَـرَّبِ
فيـا قَومَنـا لا تَظْلمونـا فإنَّنـا ... مـتى مـا نَخَـفْ ظُلْـمَ العَشـيرةِ نَغْضَـبِ
وكُفُّـوا إلـيكُمْ مـن فُضـولِ حلـومِكُمْ ... ولا تَـذْهبُوا مـنْ رأيكُـمْ كـلَّ مَـذْهَبِ
ولا تَبْـدَؤونا بالظُّلامـةِ والأذى ... فَنَجْـزيكُمُ ضِـعْفاً مـعَ الأمِّ والأبِ[١٢١]

وله قصيدة رائعة في الغرض نفسه، مشيراً فيها إلى تلك الصحيفة المشؤومة التي كتبتها قُريش لمقاطعة بني هاشِم، وكيف أنَّ الأرضة قد أكلتها، وأنَّ كيد المشركين ذهب أدراج الرِّياح:

أَلا هَـلْ أَتَـى بَحْرِيَّنَـا صَـنعُ رَبِّنَـا ... عَلَـى نَـأيِهِمْ وَاللَّـهُ بِالنَّـاسِ أَرْوَدُ[١٢٢]
فَيُخْبِـرُهُمْ أَنَّ الصَّـحِيفَةَ مُزِّقَـتْ ... وَأَنْ كُـلُّ مَـا لَـمْ يَرْضَـهُ اللَّـهُ مُفْسَـدُ
تَرَاوَحَهَـا إفْـكٌ وَسِـحْرٌ مُجَمّـعٌ ... وَلَـمْ يُلْـفَ سِحْرٌ آخِـرَ الـدَّهْرِ يَصْعَدُ
تَـدَاعَى لَهَـا مَـنْ لَـيْسَ فِيهَـا بِقَرْقَـرٍ ... فَطَائِرُهَـا فِـي رَأسِـهَا يَتَـرَدَّدُ[١٢٣]
وَكَانَـتْ كِفَـاءً رُقْعَـةٌ بِأَثِيمَـةٍ ... لِيُقْطَـعَ مِنْهَـا سَـاعِدٌ وَمُقَلَّـدُ
وَيَظْعَـنُ أَهْـلُ الْمُكَتَّـيْنِ فَيَهْرُبُـوا ... فَرَائِصُـهُمْ مِـنْ خَشْـيَةِ الشَّـرِّ تَرْعَـدُ
وَيُتْـرَكُ حَـرَّاثٌ يُقَلِّـبُ أَمْـرَهُ ... أَيُـثْهِمُ فِـيهِمْ عِنْـدَ ذَاكَ وَيُنْجِـدُ[١٢٤]
وَتَصْـعَدُ بَـيْنَ الأَخْشَـبَيْنِ كَتِيبَـةٌ ... لَهَـا حُـدُجٌ سَـهْمٌ وَقَـوْسٌ وَمِرْهَـدُ[١٢٥]
فَمَـنْ يَـنْشَ مِـنْ حُضّـارِ مَكَّـةَ عِـزَّهُ ... فَعِزَّتُنَـا فِـي بَطْـنِ مَكَّـةَ أَتْلَـدُ
نَشَـأنَا بِهَـا وَالنَّـاسُ فِيهَـا قَلائِـلٌ ... فَلَـمْ نَتْفَكِـكْ نَـزْدَادُ خَيْـراً وَنَحْمَـدُ
وَنُطْعِـمُ حتَّـى يَتْـرُكَ النَّـاسُ فَضْـلَهُمْ ... إذَا جُعِلَـتْ أَيْـدِي الْمُفِيضِـينَ تَرْعَـدُ
جَـزَى اللَّـهُ رَهْطـاً بِـالحَجُون ثُبَـايِعُوا ... عَلَـى مَـلأٍ يَهْـدِي لِحَـزْمٍ وَيُرْشِـدُ
قُعُـوداً لَـدَى خَطْـمِ الحَجُـون كَـأَنَّهُمْ ... مَقَاوِلَـةٌ بَـلْ هُـمْ أَعَـزُّ وَأَمْجَـدُ

أَعَـــانَ عَلَيْهَـــا كُـــلَّ صَـــقْرٍ كَأَنَّـــهُ إِذَا مَا مَشَى فِي رَفْرَفِ الدِّرْعِ أَحْرَدُ[١٢٦]

وله في الغرض نفسه قصيدةٌ أخرى أزاحت السِّتار عن الكثير من الحقائق التي عملت قُريش وأتباعها على طمسها، والتضليل ببعض المخدوعين لارتكاب خلافها، وهو ما لوَّح به من خلال أبياته التي بدت شديدة اللهجة وهو يخاطب أعداء الدِّين الجديد فيها، حيث يقول:

ألا أبلِغَـــا عنِّـــي علـــى ذاتِ بينـــها لؤيَّـــاً وخُصَّـــا مـــن لـــؤيٍّ بـــني كعـــبِ
ألمْ تعلَمُـــوا أنَّـــا وَجَـــدْنا محمَّـــداً رَسُـــولاً كمُوسَـــى خُـــطَّ في أوَّلِ الكُتُـــبِ
وأنَّ عليـــــهِ في العبـــــادِ محبَّـــــةً ولا حيْـــفَ فـــيمَن خصَّـــهُ اللّهُ بالحـــبِّ
وأنَّ الـــــذي رَقَّشْـــــتُمُ في كتـــــابكُمْ يكـــونُ لكـــمْ يومـــاً كراغيـــةِ السَّـــقْبِ[١٢٧]
أفيقـــوا أفيقـــوا قبـــلَ أنْ تُحفَـــرَ الزُّبَـــى ويصبحَ مَنْ لم يجنِ ذنباً كـذي ذنـبِ[١٢٨]
ولا تتبَعُـــوا أمـــرَ الغُـــواةِ وتقطعُـــوا أواصـــرَنا بعـــدَ المـــودَّةِ والقُـــربِ
وتَسْـــتجلبُوا حَرْبـــاً عَوَانـــاً وربَّمـــا أمـــرَّ علـــى مَـــنْ ذَاقَـــهُ حَلَـــبُ الحـــرْبِ
فلسْـــنَا وبيـــتِ اللّه نُســـلِمُ أحمـــداً لِعَـــزَّاء مـــن عَـــضِّ الزَّمـــان ولا كـــربِ[١٢٩]
ولَّـــا تَـــبِنْ مِنَّـــا ومـــنكمْ ســـوالفٌ وأيـــد أُتِـــرَّت بالمهنَّـــدةِ الشُّـــهْبِ[١٣٠]
بمعتـــرَكٍ ضَـــيْق ثُـــرى قِصَـــدُ القَنَـــا بـــه والضِّـــباعُ العُـــرْجُ تعكِـــفُ كالشَّـــربِ
كـــأنَّ مجـــالَ الخيـــلِ في حَجَراتـــهِ وغمغمـــةَ الأبطـــالِ معركـــةُ الحـــربِ
ألـــيسَ أبونـــا هاشِـــمٌ شـــدَّ أزرَهُ وأوصـــى بنيـــهِ بالطِّعـــان وبالضـــربِ
ولَسْـــنا نَمـــلُّ الحـــربَ حتَّـــى تَملَّنـــا ولا نشْـــتَكي ممَّـــا ينـــوبُ مـــن النَّكْـــبِ
ولكنَّنـــا أهـــلُ الحفـــائظ والنُّهـــى إذا طـــارَ أرواحُ الكُمـــاةِ مـــن الرُّعْـــبِ[١٣١]

وفي القصيدة حماسةٌ مشهودة، مع إقرار وإيمان برسالة الرَّسول i ، وبُعدٍ واسع يتناول أمَدَ البشارات به i ، وتداولها من جيل إلى جيل عند إسلامه i خاصَّة في البيت الثاني.

أبو طالب (رضي الله عنه) ووصاياه:

حينما تمرُّ على أبي طالب (رضي الله عنه) هواجس رحيله المقبل الأخير، ينتابه إحساس بالخوف على هذا المنقذ البشير، فيوجِّه كلامه إلى تلامذته ـ أهل بيته ـ بكلِّ ما يحمل

من حنان وخوف وتأكيد:

أُوْصِـي بنَصـرِ الـنبيِّ الخـيرِ مشـهدُهُ ... عَليَّـاً ابْنِـي وعـمَّ الخـيرِ عبَّاسَـا
وحَمْـزةُ الأسَـدَ المَخْشـيَّ صـولتُهُ ... وجَعْفـراً أنْ تـذُودَا دُونَـهُ الباسَـا
وهَاشِـماً كلَّهـا أُوْصِـي بنُصـرتِهِ ... أنْ يأخُـذُوا دونَ حـربِ القـومِ أمراسَـا
كُوْنُـوا فِـداءً لكُـمْ نَفْسِـي ومـا وَلَـدَتْ ... مِـنْ دون أحمَـدَ عِنـدَ الـرَّوعِ أتراسَـا
بكـلِّ أبـيضَ مَصْـقولٍ عَوارضُـهُ ... تَخَالُـهُ فِي سَـوادِ الليـلِ مقباسَـا[١٣٢]

وأبو طالب (رضي الله عنه) في هذه المقطوعة كان يوزِّع أفكاره في (علب) أبياتها الصغيرة لتصل إلى كلِّ سمع، فهي سهلة سريعة الحفظ، وكلُّ واحدة منها تعالج حالةً خاصَّة، وهو أسلوب يُحسن أبو طالب الاستفادة منه، إنْ لم نَقُل هو مبتكره، كما في قوله:

قُـلْ لعبـدِ العُـزَّى أخـي وشَـقيقي ... وبَـنـي هاشِـمٍ جَميعـاً عِزِينـا
وصَـديقي أبي عِمـارَةَ والإخـوا ... ن طُـرّاً وأسـرتي أجمعينـا
إنْ يَكُـنْ مـا أتَـى بـه أحمَـدُ اليـو ... مَ سـناءً وكـانَ فِي الحشـرِ دِينـا
فـاعْلمَوا أنَّـني لـهُ ناصـرٌ دَهْـر ... ي ومُجِـزٌّ بقـولَتي الخاذِلينـا
فانصُـروهُ للـرِّحْمِ والنَّسَـبِ الأدْ ... نَـى وكُوْنُـوا لـه يَـداً مُصْـلتينا[١٣٣]

وهذه المقطوعة رائعةٌ بأُسلوبها، ناهضةٌ بمعانيها الرَّقراقة، ممتعةٌ في النُّصح والفخر، مع جمال القافية وليونتها، وانتقاءٍ مُتقنٍ للألفاظ وموازنتها بدقَّة على مساحة أفكارها العميقة المهمَّة. ولعلَّ صدق أبي طالب (رضي الله عنه) النَّابع من قلبه النقي، كان له تأثير كبير في رُقيِّها.

ويقول في أخرى مخاطباً ابنَ أخيه ربيعة بن الحارث بن عبد المطَّلب:

إعلَـمْ أبـا أرْوَى بأنَّـكَ ماجِـدٌ ... مِـن صُـلْبِ شَـيبَةَ فانْصُـرَنَّ محمَّـدا
للّهِ دَرُّك إنْ عرفْـتَ مكانَـهُ ... فِي قومـهِ ووَهَبْـتَ منـكَ لـهُ يَـدا
أمَّـا علـيٌّ فارْتَبَثْـهُ أمُّـهُ ... ونَشـا علـى مِقَـةٍ لـهُ وتَزَيَّـدا[١٣٤]
شَـرفُ القِيامَـةِ والمعـادِ بِنَصـرِهِ ... وبعاجِـلِ الـدُّنيا يَحُـوزُ السُّـؤْدَدا

أكـــرِمْ بمـــن يقضـــي إليـــهِ بـــأمرِهِ نَفْســاً إذا عَــدَّ النُّفــوسَ ومَحْتِــدا[١٣٥]

وخلائقــاً شَــرُفَتْ بمجــدِ نِصــابهِ يَكْفيك منْـهُ اليـوْمَ مـا تَرْجـو غَـدا[١٣٦]

ويلتفت ثانية إلى أخيه حمزة لَّما سمع بإسلامه قائلاً:

فصَـبراً أبـا يَعْلـى علـى ديـنِ أحمـدٍ وكُـنْ مُظهـرا للـدِّين وُفِّقْـتَ صـابرَا

وحُـطْ مَـنْ أتـى بـالحقِّ مِـنْ عنـدِ ربِّـه بصـدْقٍ وعَـزْمٍ لا تكُـنْ حَمْـزَ كـافرَا

فقَـدْ سَـرَّني إذْ قلـتَ إنَّـكَ مـؤمنٌ فكُـنْ لرسـولِ اللهِ في اللهِ ناصِـرَا

ونـادِ قُريشـاً بالَّـذي قَـد أتيتَـهُ جِهاراً وقُـلْ مـا كـانَ أحمـدُ سـاحِرَا[١٣٧]

ويتحرَّقُ لهفةً لرؤية النَّاس وهم يدخلون في دين الله أفواجاً، فيطلق بين الحين والحين نداءاتٍ إلى هذا الرَّهط أو ذاك ليدخلوا في دين الله الخالد:

قُـلْ لِمَـنْ كـانَ مِـنْ كِنانـةَ في العـزِّ وأهـلِ النَّـدَى وأهـلِ المَعـالي

قـدْ أتـاكُمْ مِـنَ المَليـكِ رَسُـولٌ فـاقْبَلُوهُ بصـالحِ الأعمـالِ

وانصـروا أحْمَـداً فـإنَّ مِـنَ اللهِ رِداءً عليـهِ غـيرَ مُـدالِ[١٣٨]

ولعلَّ أشجى مقطوعة تلك التي نطق بها وهو يحسُّ قرب المنيَّة، وهي طافحةٌ بالإيمان الذي يعمرُ قلبه، معانقاً حبَّه وإخلاصه وتفانيه:

أبُـنيَّ طالـبُ إنَّ شـيخَكَ ناصـحٌ فيمـا يقـولُ مسـدِّدٌ لـكَ راتـقْ

فاضْـرِبْ بسَـيفِكَ مَـنْ أرادَ مُسـاءَةً حتَّـى تكـونَ لـدَى المنيَّـةِ ذائـقْ

هـذا رَجَـائي فيـكَ بعـدَ مَنـيَّتي لا زلـتُ فيـكَ بكـلِّ رُشـدٍ واثـقْ

فاعضـدْ قِـوَاهُ يـا بُـنيَّ وكـنْ لـهُ إنِّـي بجـدِّكِ لا محالـةَ لاحـقْ

آهـاً أُردِّدُ حَسْـرةً لفراقـهِ إذ لمْ أراهُ وقـدْ تطـاولَ باسـقْ؟!

أتـراهُ يشـفعُ ليْ ويَـرْحمُ عَبْرتِـي هَيهـاتْ إنِّـي لا مَحالـةَ زاهـقْ[١٣٩]

ولنا اعتراضٌ نوردهُ على أمثال هذه المقطوعة في لحن قافيتها الفاضح لو لم تُشكِّل قافاً مشبعة الحركة، ممَّا يخرجها عن الإقواء العفوي المباغت الذي يضطرُّ إليه الشاعر، والحركة فيها أقرب إلى النبرة العروضيَّة الكاملة في البحر، ولا بأسَ بالسكون وإنْ بقي منه

في النَّفس شيء، كما يؤخذ عليها ورود الفعل (أراه) غير مجزوم، مع أنَّه قد وقع فيها معمولاً لـ (لم).

لكنَّ المفارقة المحزنة المؤسفة هي نكوص أبي لهب ووقوفه إلى صف المشركين، وقد راحت أدراج الرِّياح محاولة أبي طالب (رضي الله عنه) في نُصحه وهدايته، حيث يقول لأخيه قبل أنْ تتبَّ يداه، حاثّاً له على نصرة ابن أخيه الأمين i :

وإنَّ امـــرَأً أبـــو عُتيبـــةَ عمُّـــهُ ... لَفـــي مَعْـــزِلٍ مـــنْ أنْ يُسـامَ المظالَمـا
ولا تقـبلَنَّ الـدَّهْرَ مـا عِشْـتَ لَحظـةً ... تُسَـبُّ بهـا إمَّـا هبطـتَ المواسمَـا
أقـولُ لـهُ وأيـنَ منـهُ نَصِـيحَتي ... أبـا عُتبـةٍ ثبَّـتْ سَـوادَكَ قائمَـا
ووَلِّ سـبيلَ العجـزِ غـيرَكَ منـهُمُ ... فإنَّـكَ لمْ تُخلَـقْ علـى العجْـزِ لازمَـا
وحـاربْ فـإنَّ الحـربَ نَصفٌ ولـنْ تـرَى ... أخَا الحربِ يُعطي الخَسْفَ حتَّـى يُسـالَمَا
كَـذَبْتُمْ وَبَيْـتِ اللهِ نُبْـزَىً مُحَمَّـداً ... ولَّـا تَـرَوا يَوْمـاً مِـنَ الشِّعبِ قائمَـا[١٤٠]

ويقول في قصيدة أخرى شهدت سعةً في مضمونها، وتعمَّقت أغوارها حتَّى بدت من الأهمِّيَّة بمكان بحيث لا تخفى في لفت أنظار كثير ممَّن أغفلتهم الأحداث في الوقوف إلى جانب الرِّسالة السماويَّة وصاحبها i ، بل ربما أثَّر بعضها في تغيير وجهات نظرهم، وامتدَّ لأجيال متطلِّعة أخرى:

عجبـتُ لِحلْـمٍ يـابنَ شـيبةَ عـازبٍ ... وأحـــلامِ أقـــوَامٍ لـــدَيكَ سِـــخافِ
يقولُـونَ شـايعْ مَـنْ أرادَ محمَّـداً ... بظُلْـمٍ وقُـمْ في أمـرِهِ بخـلافِ
أضـاميمُ إمَّـا حاسـدٌ ذُو خيانـةٍ ... وأمَّـا قريـبٌ عنـكَ غـيرُ مُصـافِ
فـلا تـركبَنَّ الـدهرَ منـهُ ذَمامـةً ... وأنـتَ امـرؤٌ مـنْ خـيرِ عبـدِ منـافِ
ولا تتركَنْـهُ مـا حَييـتَ لِمُعظِـمٍ ... وكُـنْ رَجـلاً ذا نجـدةٍ وعَفـافِ
يـذودُ العِـدا عـن ذروةٍ هاشِـميَّةٍ ... إلافُهُـمُ في النَّـاسِ خـيرُ إلافِ
فـإنَّ لـه قُـربى لـديكَ قريبـةً ... ولـيس بـذي حلـفٍ ولا بمضـافِ
ولكنَّـه مـنْ هاشِـمٍ ذِي صَـميمها ... إلى أبحُـرٍ فـوقَ البُحـورِ طَـوافِ
وزاحِـمْ جميـعَ النَّـاسِ عنـهُ وكـنْ لَـهُ ... وَزِيـراً علـى الأعـداءِ غـيرَ مُجـافِ

وإنْ غَضِبتْ منهُ قُريشٌ فقُلْ لها ... بَني عمِّنا ما قومُكُمْ بضِعافِ
وما بالُكُمْ تَغْشَونَ منهُ ظُلامَةً ... وما بالُ أحقادٍ هُناكَ خَوافِ
فما قومُنَا بالقومِ يَخْشَوْنَ ظُلمَنا ... وما نحنُ فيما ساءَهُمْ بخِفافِ
ولكنَّنا أهلُ الحفائظِ والنُّهى ... وعِزٍّ ببطحاءِ المشاعرِ وافِ[١٤١]

وبين أيدينا محاورةٌ شعريَّة كبيرة الدلالة دارت بين أبي طالب وابنه عليٍّ (عليهما السَّلام)، ونحن نترك المجال لابن أبي الحديد كي يرويها، حيث يقول: ((كان أبو طالب إذا رأى رسولَ الله i أحياناً يبكي ويقول: إذا رأيتُهُ ذكرتُ أخي، وكان عبد الله أخاه لأبويْه، وكان شديد الحُبِّ والحنوِّ عليه، وكذلك كان عبدُ المطَّلب شديدَ الحبِّ له، وكان أبو طالب كثيراً ما يخاف على رسول الله i البيات إذا عُرف مضجعه، فكان يقيمُهُ ليلاً من منامه ويُضجع ابنَه علياً مكانَه، فقال له عليٌّ ليلةً: يا أبتِ، إنِّي مقتول. فقال له:

اصبرنْ يا بُنيَّ فالصَّبرُ أحْجى ... كلُّ حيٍّ مصيرُه لِشَعُوبِ
قدَّر اللّهُ والبلاءُ شديدٌ ... لفداءِ الحبيبِ وابنِ الحبيبِ
لفِدَاءِ الأغرِّ ذي الحسَبِ الثَّاقبِ ... والباعِ والكريمِ النجيبِ
إنْ تُصبْكَ المنونُ فالنَّبلَ تَبْري ... فمصيبٌ منها وغيرُ مصيبِ
كلُّ حيٍّ وإنْ تملَّى بعُمرٍ ... آخذٌ منْ مَذَاقِها بنصيبِ

فأجاب عليٌّ a ، قائلاً له:

أتأمرُني بالصَّبْرِ في نصرِ أحمدٍ ... ووالله ما قلتُ الذي قُلْتُ جازعَا
ولكنَّني أحْبَبْتُ أنْ تَرَى نصرَتي ... وتعلمُ أنِّي لمْ أزلْ لكَ طائعَا
سأسعى لوجهِ الله في نصرِ أحمدٍ ... نبيِّ الهُدَى المحْمُودِ طِفْلاً ويافِعَا))[١٤٢]

وبذلك يقتسم الرَّجلان الأب وابنه شرف الدِّفاع والحماية عن الحقِّ الذي صدع به النبيُّ i ، بتواؤمٍ غريبٍ، ومواصلةٍ حثيثةٍ، وعهدٍ غيرِ منكوث، واستبسالٍ قلَّ نظيره. وعلى الرُّغم من (أنَّ أبا طالب قد عُرف بكونه شاعراً متميِّزاً قد ثمَّنه النبيُّ i كما ثمَّنه أهلُ البيت d ، وأوصوا بحفظ شعره نظراً لتضمِّنه الإشادة بالنبيِّ وبالإسلام، فضلاً عن انطوائه على قيم فنيَّة ناضجة بالقياس إلى الهبوط الفني للشعر بعامة في مرحلة صدر الإسلام... فإنَّه قد

توفَّر على الصِّياغة النَّثريَّة أيضاً، إلاَّ أنَّ ذلك يظلُّ في نطاق ثانوي تُمليه المناسبة)[١٤٣].

ولعلَّ سائلاً يسأل: أهذا كلُّ ما لأبي طالب من شعر ولائي يكشف عقيدته الحقَّة ويثبت إيمانه بالرسالة والرسول؟ فنقول: كلا، بل هناك ملحمته اللاميَّة التي قال عنها كثير من رجال الأدب والتاريخ: لو لمْ يكن لأبي طالب (رضي الله عنه) شعرٌ غيرها لكفتْهُ في التَّدليل على شاعريَّته وإيمانه. بل إنَّ بعضهم يعدُّها في مصاف المعلَّقات؛ لطولها واسترسال نَفَسها المليء بالأغراض والصُّور المتلاحقة المكثفة، والمواقع والمواقف بما عُرف من مطوَّلات العرب، إضافة إلى قيمتها الوثيقيَّة تاريخيَّاً واجتماعيَّاً.

وقد أثبتناها كما وردت كاملةً، ولنْ نزيد على التَّذكير بأنَّها موجودة في أغلب المصادر المعتمدة، وعددُ أبياتها مئةٌ وأحدَ عشرَ بيتاً كما رواها أبو هفَّان، وقرابة مئة بيت في سيرة ابن هشام. ولكن المحيِّر حقَّاً أنْ يغفل ذكرَها أغلبُ مؤرِّخي الأدب المعاصرين، حتَّى لقد دسَّ أحدهم بيتاً واحداً منها ((وَأَبْيَضَ يُسْتَسْقَى الغَمَامُ بِوَجْهِهِ...)) في غمار الحديث عن فتح مكَّة والوفود، مع شكِّه بنسبة أغلبها لأبي طالب (رضي الله عنه)[١٤٤]، على الرُّغم من أنَّ مثل ابن هشام ينقلها عن ابن إسحاق موثَّقةً بقوله: (فلَمَّا خَشِيَ أَبُو طَالِبٍ دَهْمَاءَ العَرَبِ أَنْ يَرْكَبُوهُ مَعَ قَوْمِهِ، قَالَ قَصِيدَتَهُ التي تَعَوَّذَ فِيهَا بِحَرَمِ مَكَّةَ وَبِمَكَانِهِ مِنْهَا، وَتَوَدَّدَ فِيهَا أَشْرَافُ قَوْمِهِ وَهُوَ عَلَى ذَلِكَ يُخْبِرُهُمْ وَغَيْرَهُمْ فِي ذَلِكَ مِنْ شَعْرِهِ أَنَّهُ غَيْرُ مُسْلِمٍ رَسُولَ اللهِ i ، وَلَا تَارِكِهِ لِشَيْءٍ أَبَداً حَتَّى يَهْلَكَ دُونَهُ)[١٤٥].

والقصيدة هي:

خليليَّ ما أذْنِي لأوَّلِ عَاذِلِ ... بصغواءَ في حقٍّ ولا عندَ باطلِ
خليليَّ إنَّ الرَّأيَ ليس بشُركَةٍ ... ولا نهنهٍ عندَ الأُمورِ الثَّلاثلِ[١٤٦]
ولَمَّا رَأَيْتُ القَوْمَ لا وُدَّ فِيهِمُ ... وَقَدْ قَطَعُوا كُلَّ العُرَى وَالوَسَائِلِ
وَقَدْ صَارَحُونَا بِالعَدَاوَةِ وَالأَذَى ... وَقَدْ طَاوعُوا أَمْرَ العَدُوِّ المُزَايِلِ
وَقَدْ حَالَفُوا قَوْماً عَلَيْنَا ... يَعَضُّونَ غَيْظاً خَلْفَنَا بِالأَنَامِلِ
صَبَرْتُ لَهُمْ نَفْسِي بِسَمْرَاءَ سَمْحَةٍ ... وَأَبْيَضَ مَاضٍ مِنْ تُرَاثِ المَقَاوِلِ[١٤٧]
وَأَحْضَرْتُ عِنْدَ البَيْتِ رَهْطِي وَإِخْوَتِي ... وَأَمْسَكْتُ مِنْ أَثْوَابِهِ بِالوَصَائِلِ

قِيَامـــاً مَعـــاً مُسْـــتَقْبِلِينَ رِتَاجَـــهُ ... لَدَى حَيْثُ يقْضِي نسكهُ كُلُّ نَافِلِ[١٤٨]

وَحَيْـــثُ يُنِـــيخُ الأَشْـــعَرُونَ رِكَـــابَهُمْ ... بِمُفْضَـــي السَّـــيُولِ مِـــنْ إِسَـــافَ وَنَائِـــلِ

مُوَسَّـــمَةُ الأَعْضَـــادِ أَوْ قَصِـــرَاتِهَا ... مُحبَّسَـــةٌ بَـــيْنَ السَّـــدِيسِ وَبَـــازِلِ[١٤٩]

تَـــرَى الـــوَدْعَ فِيهَـــا وَالرِّخَـــامَ وَزَيْنَـــةً ... بِأَعْنَاقِهَـــا مَعْقُـــودَةً كَالعَثَاكِـــلِ[١٥٠]

أَعُـــوذُ بِـــرَبِّ النَّـــاسِ مِـــنْ كُـــلِّ طَـــاعِنٍ ... عَلَيْنَـــا بِشَـــرٍّ أَوْ مُلِـــحٍّ بِبَاطِـــلِ

وَمِـــنْ كَاشِـــحٍ يَسْـــعَى لَنَـــا بِمَعِيبَـــةٍ ... وَمِـــنْ مُفتَـــرٍ فِـــي الـــدِّين مَـــا لَـــمْ نُحَـــاوِلِ

وَثَـــوْرٍ وَمَـــنْ أَرْسَـــى ثَـــبِيراً مَكَانَـــهُ ... وَعَـــيرٍ وراقٍ فِـــي حِـــرَاءَ وَنَـــازِلِ[١٥١]

وَبِالبَيْـــتِ رُكـــنِ البَيْـــتِ مِـــنْ بَطْـــنِ مَكَّـــةَ ... وَبِـــاللهِ إنَّ اللهَ لَـــيْسَ بِغَافِـــلِ

وَبِـــالحَجَرِ المُسْـــوَدِّ إِذْ يَمْسَـــحُونَهُ ... إِذَا اكْتَنَفُـــوهُ بِالضُّـــحَى وَالأَصَـــائِلِ

وَمَـــوْطِئِ إِبْـــرَاهِيمَ فِـــي الصَّـــخْرِ وطـــأَةً ... عَلَـــى قَدَمَيْـــهِ حَافِيـــاً غَيْـــرَ نَاعِـــلِ

وَمَـــنْ حَـــجَّ بَيْـــتَ اللهِ مِـــنْ كُـــلِّ رَاكِـــبٍ ... وَمِـــنْ كُـــلِّ ذِي نَـــذْرٍ وَمِـــنْ كُـــلِّ رَاجِـــلِ

وَبِالمَشْـــعَرِ الأَقْصَـــى إِذَا عَمَـــدُوا لَـــهُ ... أَلالاً إِلَـــى مُفْضَـــى الشِّـــرَاجِ القَوَابِـــلِ[١٥٢]

وَتَوْقَـــافِهِمْ فَـــوْقَ الجِبَـــالِ عَشِـــيَّةً ... يُقِيمُـــونَ بِالأَيْـــدِي صُـــدُورَ الرَّوَاحِـــلِ

وَلَيْلَـــةِ جَمْـــعٍ وَالمَنَـــازِلِ مِـــنْ مِنًـــى ... وَمَـــا فَوْقَهَـــا مِـــنْ حُرْمَـــةٍ وَمَنَـــازِلِ[١٥٣]

وَجَمْـــعٍ إِذَا مَـــا المُقْرَبَـــاتُ أَجَزْنَـــهُ ... سِرَاعاً كَمَا يَفْـزِعْنَ مِـنْ وَقْـعِ وَابِـلِ[١٥٤]

وَبِـــالجَمْرَةِ الكُبْـــرَى إِذَا صَـــمَدُوا لَهَـــا ... يَؤُمُّـــونَ قَـــذْفاً رَأْسَـــهَا بِالجَنَـــادِلِ

وَكِنْـــدَةَ إِذْ ترمـــي الجمـــارَ عَشِـــيَّةً ... تُجِيـــزُ بِهـــا حُجَّـــاجَ بَكْـــرِ بْـــنِ وَائِـــلِ

حَلِيفَـــانِ شَـــدَّا عَقْـــدَ مَـــا اخْتَلَفَـــا لَـــهُ ... وَرَدَّا عَلَيْـــهِ عَاطِفَـــاتِ الـــذَّلائِلِ

وَحَطْمِهِـــمُ سَـــمْرَ الرِّمَـــاحِ مـــع الظُّـــبى ... وانقـــاذُهمْ مـــا ينتقـــي كـــلُّ نابـــلِ

ومشـــيُهُمُ حـــولَ البســـالِ وســـرحهِ ... وسـلميِّهِ وَخْـدَ النَّعَـامِ الجوافـلِ[١٥٥]

فَهَـــل فـــوق هَـــذَا مِـــنْ مَعَـــاذٍ لِعَائِـــذٍ ... وَهَـــل مِـــنْ مُعِيـــذٍ يَتَّقِـــي اللهَ عَـــادلِ

يُطَـــاعُ بِنَـــا الأعـــداءُ ودّوا لـــو انَّنـــا ... تُسَـــدُّ بِنَـــا أَبْـــوَابُ ثُـــرْكٍ وَكَابُـــلِ

كَـــذَبْتُمْ وَبَيْـــتِ اللهِ نَثْـــرُكُ مَكَّـــةَ ... وَنَظْعَـــنُ إِلاَّ أَمْـــرُكُمْ فِـــي بَلابِـــلِ[١٥٦]

كَـذَبْتُمْ وَبَيْـتِ اللهِ نُبْـزَى مُحَمَّـداً ... ولَمَّـا نُطَـاعِنْ دُونَـهُ وَنُنَاضِـلِ[١٥٧]

وَنُسْـلِمُهُ حتَّـى نُصَـرَّعَ حَوْلَـهُ ... وَنَـذْهَلُ عَـنْ أَبْنَائِنَـا وَالحَلائِـلِ

وَيَـنْهَضُ قَـوْمٌ فِـي الحَدِيـدِ إِلَـيْكُمُ ... نُهُوضَ الرَّوَايَا تَحْتَ ذَاتِ الصَّلاصِلِ[١٥٨]

وحتَّـى يُـرى ذو البغـي يَرْكَـبُ رَدْعَـهُ ... مِـنْ الطَّعْـنِ فِعْلَ الأَثْكَـبِ المُتَحَامِـلِ[١٥٩]

وَإِنَّـا لَعَمْـرُ اللهِ إِنْ جَـدَّ مَـا أَرَى ... لَتَلْتَبِسَـنْ أَسْـيَافُنَا بِالأَمَائِـلِ

بِكَـفِّ فَتًـى مِثْـلِ الشِّـهَابِ سُـمَيْدَعٍ ... أَخِـي ثِقَـةٍ حَـامِي الحَقِيقَـةِ بَاسِـلِ

شُـهُوراً وَأَيَّامـاً وَحَـوْلاً مُجَرَّمـاً ... عَلَيْنَـا وَتَـأْتِي حِجَّـةٌ بَعْـدَ قَابِـلِ[١٦٠]

وَمَـا تَـرْكُ قَـوْمٍ لا أَبَـا لَـكَ سَـيِّداً ... يَحُـوطُ الـذِّمَارَ غَيْـرَ ذَرْبٍ مُوَاكِـلِ[١٦١]

وَأَبْـيَضَ يُسْتَسْـقَى الغَمَـامُ بِوَجْهِـهِ ... ثُمَـالَ اليَتَـامَى عِصْـمَةً لِلأَرَامِـلِ

يَلُـوذُ بِـهِ الهُـلاَّكُ مِـنْ آلِ هَاشِـمٍ ... فَهُـمْ عِنْـدَهُ فِـي نِعْمَـةٍ وَفَوَاضِـلِ

لَعَمْـرِي لَقَـدْ أَجْـرَى أُسِـيدٌ وَرهطُـهُ ... إِلَـى بُغْضِـنَا وَجَـزاً بأكلـةِ آكـلِ

جـزَتْ رَحِـمٌ عنَّـا أسـيداً وخالـداً ... جـزاءَ مُسـيءٍ لا يـؤخِّرُ عاجـلِ

وَعُثْمَـانُ لَـمْ يَرْبَـعْ عَلَيْنَـا وَقُنْفُـذٌ ... وَلَكِـنْ أَطَاعَـا أَمْـرَ تِلـكَ القَبَائِـلِ[١٦٢]

أَطَاعَـا بنـا الغـاوينَ في كـلِّ وجهـةٍ ... وَلَـمْ يَرْقُبَـا فِينَـا مَقَالَـةَ قَائِـلِ

كَمَـا قَـدْ لَقِينَـا مِـنْ سُـبَيْعٍ وَنَوْفَـلٍ ... وَكُـلٌّ تَـوَلَّى مُعْرِضـاً لَـمْ يُجَامِـلِ

فَـإِنْ يُلقيَـا أَوْ يُمْكِـنِ اللهُ مِنْهُمَـا ... نَكِـلْ لَهُمَـا صَـاعاً بِكَيـلِ المُكَايِـلِ

وَذَاكَ أَبُـو عَمْـرٍو أَبَـى غَيْـرَ بُغْضِـنَا ... لِيُظْعِنَنَـا فِـي أَهْـلِ شَـاءٍ وَجَامِـلِ[١٦٣]

يُنَـاجِي بِنَـا فِي كـلِّ مُمْسًـى وَمُصْـبَحٍ ... فَنَـاجَ أَبَـا عَمْـرٍ بِنَـا ثمَّ خَاتِـلِ

ويقسـمُنا بِـاللهِ مَـا إِنْ يَغُشَّـنَا ... بَلَـى قَـدْ نَـرَاهُ جَهْـرَةً غَيْـرَ حَائِـلِ

أَضَـاقَ عَلَيْـهِ بُغْضُـنَا كُـلَّ تَلْعَـةٍ ... مِـنْ الأَرْضِ بَـيْنَ أَخْشُـبٍ فَمَجَـادِلِ[١٦٤]

وَسَـائِلْ أَبَـا الوَلِيـدِ مَـاذَا حَبَوْتَنَـا ... بِسَـعْيِك فِينَـا مُعْرِضـاً كَالمُخَاتِـلِ

وَكُنْـتَ امْـرَأً مِمَّـنْ يُعَـاشُ بِرَأْيِـهِ ... وَرَحْمَتِـهِ فِينَـا وَلَسْـتَ بِجَاهِـلِ

فَعُتْبَـةُ لا تَسْـمَعْ بِنَـا قَـوْلَ كَاشِـحٍ ... حَسُـودٍ كَـذُوبٍ مُبْغِضٍ ذِي دَغَـاوِلِ[١٦٥]

وقد خفتُ إنْ لم تزدَجرْهُمْ وترعووا ... تلاقي ونلقى منك إحدى البلابلِ

وَمَرَّ أَبُو سُفْيَانَ عَنِّيَ مُعْرِضاً ... كَمَا مَرَّ قَيْلٌ فِي كبارِ المَجادلِ

يَفِرُّ إِلَى نَجْدٍ وَبَرْدِ مِيَاهِهِ ... وَيَزْعُمُ أَنِّي لَسْتَ عَنْهمْ بِغَافِلِ

وأعلمُ أنْ لا غافلٌ عن مساءةٍ ... كذاكَ العَدوُّ عندَ حقٍّ وباطلِ

فميلُوا علينا كلُّكمْ إنَّ ميلَكُمْ ... سَواءٌ علينا والرِّياحُ بهاطلِ

أيُخْبِرُنَا فِعْلَ المُنَاصِحِ أَنَّهُ ... شَفِيقٌ وَيبغِي عَارِمَاتِ الدّوَاخِلِ

أَمُطْعِمُ لَمْ أَخْذُلْكَ فِي يَوْمِ نجدَةٍ ... وَلا عند تلك المعظماتِ الجَلاجلِ

وَلا يَوْمَ خَصْمٍ إذْ أَتَوْكَ أَلِدّةً ... أُولِي جَدَلٍ مِثل الخُصُومِ المَسَاجِلِ

أَمُطْعِمُ إنّ القَوْمَ سَامُوكَ خُطَّةً ... وَإِنِّي مَتَى أُوكَلْ فَلَسْتَ بِوَائِلِ[١٦٦]

جَزَى اللّه عَنَّا عَبْدَ شَمْسٍ وَنَوْفَلاً ... عُقُوبَةَ شَرٍّ عَاجِلاً غَيْرَ آجِلِ

بِمِيزَانِ قِسْطٍ لا يُخِيسُ شَعِيرَةً ... لَهُ شَاهِدٌ مِنْ نَفْسِهِ غَيْرُ عَائِلِ

لَقَدْ سَفُهَتْ أَحْلامُ قَوْمٍ تَبَدّلُوا ... بَنِي خَلَفٍ قَيْضاً بِنَا وَالغَيَاطِلِ[١٦٧]

وَنَحْنُ الصَّمِيمُ مِنْ ذُؤَابَةِ هَاشِمٍ ... وَآلُ قُصَيٍّ فِي الخُطُوبِ الأَوَائِلِ

وَكَانَ لَنَا حَوْضُ السِّقَايَةِ فِيهُمُ ... وَنَحْنُ الذُّرى مِنْهمْ وَفوقَ الكَوَاهِلِ

فَمَا أَدْرَكُوا ذَحْلاً وَلا سَفَكُوا دَماً ... وَمَا خَالَفُوا إلاَّ شرارَ القَبَائِلِ

بَنِي أُمَّةٍ مَجنونةٍ هِنْدِكيَّةٍ ... بَنِي جُمَحٍ عُبَيْدِ قَيْسِ بْنِ عَاقِلِ

وَسَهْمٌ وَمَخْزُومٌ تَمَالَوْا وَأَلّبُوا ... عَلَيْنَا العِدَا مِنْ كُلِّ طِمْلٍ وَخَامِلِ[١٦٨]

وَشَايظُ كَانَتْ فِي لُؤَيّ بْنِ غَالِبٍ ... نَفَاهُمْ إِلَيْنَا كُلُّ صَقْرٍ حُلاحِلِ[١٦٩]

وَرَهْطُ نُفَيْلٍ شَرَّ مَنْ وَطِئَ الحَصَا ... وَأَلامَ حَافٍ مِنْ مَعَدٍ وَنَاعِلِ

فَعَبْدَ مَنَافٍ أَنْتُمْ خَيْرُ قَوْمِكُمْ ... فَلا تُشْرِكُوا فِي أَمْرِكُمْ كُلَّ وَاغِلِ

فقدْ خفتُ إنْ لم يُصلحِ اللّهُ أمرَكُمْ ... تكونُوا كما كانتْ أحاديثُ وائلِ

لَعَمْرِي لَقَدْ وَهَنْتُمُ وَعَجَزْتُمُ ... وَجِئْتُمْ بِأَمْرٍ مُخْطِئٍ لِلمَفَاصِلِ

وَكُنْتُمْ قديماً حَطْبَ قِدْرٍ فأنْتُمْ ... أَلانَ حِطَابُ أَقْدُرٍ وَمَرَاجِلِ[١٧٠]

لِيَهْنِئْ بَنِي عَبْدِ المَنَاف عُقُوقُهَا ... وَخِذْلانُها وَتَرْكُها فِي المَعَاقِلِ
فَإِنْ يكُ قَوْمٌ سرَّهمْ مَا صَنَعْتُمُ ... سيحْتَلِبُوهَا لاقْحَاً غَيْرَ بَاهِلِ[١٧١]
فَأَبْلِغْ قُصَيًّا أَنْ سَيُنْشَرُ أَمْرُنَا ... وَبَشِّرْ قُصَيًّا بَعْدَنَا بِالتَّخَاذُلِ
وَلَوْ طَرَقَتْ لَيْلاً قُصَيًّا عَظِيمَةٌ ... إذَا مَا لَجَأْنَا دُونَهُمْ فِي المَدَاخِلِ
وَلَوْ صَدَقُوا ضَرْباً خِلالَ بُيُوتِهِمْ ... لكُنَّا أُسىً عِنْدَ النِّساءِ المَعاطِلِ
فَإِنْ تَكُ كَعْبٌ مِنْ لُؤَيٍّ تجمعتْ ... فَلا بُدّ يَوْماً مَرّةً مِنْ تَزَايُلِ
وإن تكُ كعبٌ من كعوب كبيرةٌ ... فلا بدّ يوماً أنّها في مجاهلِ
وكنَّا بخيرٍ قبلَ تَسويدِ معشرٍ ... هُمُ ذَبحُونَا بالمُدى والمقاولِ
فَكُلُّ صَدِيقٍ وَابْنِ أُخْتٍ نَعُدّهُ ... لَعَمْرِي وَجَدْنَا عيشَهُ غيرَ زائلِ
سِوَى أَنَّ رَهْطاً مِنْ كِلابِ بْنِ مُرّةَ ... بَرَاءٌ إِلَيْنَا مِنْ مَعَقَّةِ خَاذِلِ
بني أسَدٍ لا تطرُفُنَّ على القَذَى ... إذا لمْ يقلْ بالحقِّ مقولُ قائلِ
فَنِعْمَ ابْنُ أُخْتِ القَوْمِ غَيْرَ مُكَذّبٍ ... زُهَيْرٌ حُسَاماً مُفْرَداً مِنْ حَمَائِلِ
أَشَمُّ مِنْ الشّمِّ الطوالِ إذا انْتَمى ... ففي حَسَبٍ فِي حَوْمَةِ المَجْدِ فَاضِلِ
لَعَمْرِي لَقَدْ كَلِفْتُ وَجْداً بِأَحْمَدٍ ... وَإِخْوَتِهِ دَأْبَ المُحِبِّ المُوَاصِلِ
فَلا زَالَ فِي الدُّنيا جَمَالاً لأَهْلِهَا ... وَزَيْناً على رغمِ العدوِّ المخابلِ
فَمَنْ مِثْلُهُ فِي النَّاسِ أَو من مُؤَمّلٍ ... إذَا قَايسَ الحُكَّامُ أهلَ التَّفَاضُلِ
حَلِيمٌ رَشِيدٌ عَادِلٌ غَيْرُ طَائِشٍ ... يُوَالِي إلَهاً لَيْسَ عَنْهُ بِغَافِلِ
فَأَيَّدَهُ رَبُّ العِبَادِ بِنَصْرِهِ ... وَأَظْهَرَ دِيناً حَقّهُ غَيْرُ ناصلِ
فَوَاللّه لَوْلا أَنْ أَجِيءَ بِسُبّةٍ ... تُجَرّ عَلَى أَشْيَاخِنَا فِي المَحَافِلِ
لكُنَّا اتَّبَعْنَاهُ عَلَى كُلِّ حَالَةٍ ... مِنْ الدَّهْرِ جِدَّاً غَيْرَ قَوْلِ التَّهَازُلِ
لَقَدْ عَلِمُوا أَنَّ ابْنَنَا لا مُكَذَّبٌ ... لَدَيْهِم وَلا يُعْنَى بِقَوْلِ الأَبَاطِلِ
وجُدْتُ بِنَفْسِي دُونَهُ وَحَمَيْتُهُ ... ودارأتُ عنهُ بالذُّرى والكواهلِ
رِجَالٌ كِرَامٌ غَيْرُ مِيلٍ نَمَاهُمُ ... إلَى العِزِّ آبَاءٌ كِرَامُ المَخَاصِلِ[١٧٢]

وَقفنـــا لَهُـــمْ حتَّـــى تَبَـــدَّدَ جَمْعُهُـــمْ ... وَحسَّـــرَ عَنَّـــا كُـــلُّ بَـــاغٍ وَجَاهِـــلِ
شَـــبَابٌ مِـــنْ المُطَّلِـــبِينَ وَهَاشِـــمٍ ... كَبِيضِ السِّيُوفِ بَيْنَ أَيْدِي الصَّيَاقِلِ
بِضَـــرْبٍ تَـــرَى الفِتْيَـــانَ عنـــه كَـــأَنَّهُمْ ... ضَـوَارِي أُسُـودٍ فَـوْقَ لَحْـمٍ خَـرَادِلِ[١٧٣]
وَلَكِنَّنَـــا نَسْـــلٌ كِـــرَامٌ لِسَـــادَةٍ ... بِهِـمْ يعتلـي الأَقْـوَامُ عِنْـدَ التَّطـاوِلِ
ســيعلمُ أهــلُ الضَّــغنِ أيِّــي وأيُّهــمْ ... يفُـــوْزُ ويعْلُـــو فِي ليـــالٍ قلائـــلِ
وأيُّهـــمُ منِّـــي ومنـــهُمْ بســـيفهِ ... يُلاقـــي إذا مـــا حـــانَ وقـــتُ التَّنـــازُلِ
ومَـــنْ ذا يمـــلُّ الحـــربَ منِّـــي ومنـــهُمُ ... ويُحمَـــدُ فِي الآفـــاقِ فِي قـــولِ قائـــلِ
فَأَصْـــبَحَ منَّـــا أَحْمَـــدٌ فِـــي أَرُومَـــةٍ ... تُقَصَّـــرُ منـــها سَـــوْرَةُ المُتَطَـــاوِلِ
كـــأنِّي بـــه فـــوقَ الجيـــادِ يقودُهَـــا ... إلى معشـــرٍ زاغُـــوا إلى كـــلِّ باطـــلِ
وجُـــدْتُ بِنَفْسِـــي دُونَـــهُ وَحَمَيْتَـــهُ ... وَدَافَعْـتُ عَنْـهُ بِـالطَّلَى وَالكَلاكِـلِ[١٧٤]
ولا شَـــكَّ أنَّ اللّٰهَ رافِـــعُ أمـــرِهِ ... ومُعليـــهِ فِي الـــدُّنيا ويـــومِ التَّجـــادُلِ
كمَـا قـدْ أرى فِي اليـومِ والأمـسِ جـدَّهُ ... ووالـــدهُ رؤياهمـــا خـــيرُ آفـــلِ[١٧٥]

وفي تقييمنا لهذه القصيدة الملحميَّة نجد أنفسنا مرغمين على الاعتراف لها بقوَّة النَّفَس وجزالته واطِّراده، إلى حدٍّ استطاع فيه الشاعر أنْ يفجأ المتلقِّي بتسريبه جملةَ أفكارٍ راودتْهُ، ونجح في حبكِ نسيجها ضمن تكوين القصيدة العام. كما أنَّ حُسن المطلع وبراعة التَّخلُّص والنفاذ من فكرة إلى أخرى أضفيا عليها جمالاً خاصَّاً، اقترن باختيار البحر الطويل الذي تُجوَّدُ به الحماسيَّات والفخريَّات عامَّة، أمَّا الأُسلوب فهو أقربُ إلى الجاهلي من باقي شعر أبي طالب (رضي الله عنه)، وقد اعتمد فيه منهج الصنعة وإنْ اكتسبت بعض مقاطعها سمة العفويَّة والتلقائيَّة، ممَّا يزيدها قيمةً توثيقيَّة.

وعلى الرُّغم من أنَّ (مؤرِّخ الأدب يتوقَّع أنَّ الشِّعر في مثل هذه المرحلة لا بدَّ أنْ يتَّسم بعدم النضج، بالركاكة: لفظيَّاً وتركيبيَّاً، وبالنضوب من حيث العنصر الصُّوري؛ نظراً لعدم سماح الظروف الملتهبة بمراعاة الصِّياغة الفنيَّة، لكن بالنسبة إلى هذا الشاعر يلاحظ ـ وهذا ما يلفت النظر ـ أنَّ النِّتاج المأثور عنه يتَّسم بصياغة محكمة لغةً وصورةً؛ فمن حيث اللغة نجد أنَّ العبارة تتَّسم بالطوابع التَّالية: الأُلفة، والوضوح، والإشراق اللفظي، ونعومة الجرس،

وإحكام العبارة ومتانتها، وهذه هي أهمُّ خصائص اللغة الشِّعريَّة. وأمَّا من حيث الصُّورة، نجد أنَّ التَّركيب الصُّوري بنمطيه المباشر وغير المباشر يأخذ حجماً معتدلاً، فلا يَحشد النَّص بعنصر الصُّورة ولا يُخليه من هذا العنصر، بل يستخدمه وسطاً، ففي مجال الصُّورة غير المباشرة ـ أي التي تعتمد الاستعارة أو التَّمثيل أو التَّضمين... إلخ ـ نجد نماذج من نحو:

وَأَبْـيَضَ يُسْتَسْـقَى الغَمَـامُ بِوَجْهِـهِ ثُمَـالَ اليَتَـامَى عِصْـمَةً لِلأَرَامِـلِ

حيث يتضمَّن هذا البيت صورة استعاريَّة، وصورة تمثيليَّة في شطره الأوَّل، وصورتين تمثيليَّتين في الشطر الآخر. الصُّورة التَّمثيليَّة (أَبْيَض)، والصُّورة الاستعاريَّة (يُسْتَسْقَى الغَمَامُ)، والصُّورتان التَّمثيليَّتان (ثُمَالَ اليَتَامَى) و(عِصْمَةً للأَرَامِلِ)، وجميع هذه الصُّور تنتسب إلى ما هو مألوف من الخبرات التي يحياها الإنسان (أبيض، استسقاء، عصمة...)، حتَّى أنَّ النبيَّ i ثمَّن هذا البيت في أكثر من موقف، كما تشير إلى ذلك النُّصوص المؤرِّخة. والمهم أنَّ الصوت (جرس العبارة) قد اقترن بالصُّورة بنحو يتحسَّسه المتلقِّي بوضوح؛ فالوجه والاستسقاء يتقابلان لوناً وعطاءً بحيث يحقِّقان الإشباع النفسي والمادِّي لدى المتلقِّي، وهذا ما يُجسِّد الإثارة الفنيَّة الممتعة))[١٧٦].

ونحن عندما نؤكِّد على القيمة التَّاريخيَّة لأشعار أبي طالب (رضي الله عنه)، لا نقول ذلك مغالين أو منحازين، وإنَّما نقولُه عن علمٍ وثقةٍ وبصيرةٍ، وكعيِّنة خاصَّة من مجمل شعره، حيث نرى أنَّ مطالع قصائده عامرة بقيم استثنائيَّة في تلمُّس مواقع الوجدان الداخلي التي كانت تزخر به، وتمتاح من بئر صافية عميقة الرؤى والتفكير؛ ذلك لأنَّ ((المقدّمة هي الجانب الذَّاتي في القصيدة، وهي المطلقة لعنان النَّفس، تموج فيها عناصر كثيرة مشتبكة، وكلَّما قامت بين هذه العناصر علاقات جدليَّة كلَّما رأينا خصوبة التَّجربة وخصوبة الأدوات)[١٧٧]، وهو ما نجح أبو طالب (رضي الله عنه) فيه بشكل كبير.

وفاة أبي طالب (رضي الله عنه):

في شهر رمضان المبارك ـ وقيل: شوَّال ـ من السنة العاشرة من البعثة النَّبويَّة، رحل أبو طالب (رضي الله عنه) تشيِّعه صلواتُ النبيِّ i ودموعُهُ ودعواتُهُ، ويفرح المشركون، وتتأزَّم أوضاع المسلمين، وتطول المعاناة بعد عشر سنوات مريرة كان فيها أبو طالب القلعة الحصينة للنبيِّ i وأصحابه؛ ولولا أنَّه خلَّف مكانه بطله الضرغام وولده المتفاني المضحِّي

علياً a ، لما استطاع النبيُّ i ومَن معه البقاء في مكَّة، ومع ذلك فقد سُدَّت الطُّرق كلُّها في وجوههم، ولم يبقَ أمامهم سوى الهجرة إلى مكان آخر، فيهاجرون إلى يثرب وطيف أبي طالب (رضي الله عنه) يشيِّعهم وهم يبكونه على قوافي مرثيَّة ولده عليٍّ a :

أرقــتُ لطــيرٍ آخــرَ الليــلِ غَــرَّدَا ... يُــذكِّرني شَــجْوَاً عَظيمــاً مُجــدَّدَا
أبـا طالـبٍ مـأوَى الصَّعاليكِ ذا النَّـدَى ... جَــواداً إذا مــا أصــدَرَ الأمــرُ أوردَا
أخــا الهُلــكِ خَلَّــى ثلْمــةً سيسـدُّها ... بنــو هاشِــمٍ أو تُســتباحُ وتُضْــهدَا
فأمْسَــتْ قُــريشٌ يفْرحُــونَ بموتــهِ ... ولســتُ أرى حيَّــاً يكــونُ مخلَّــدَا
أرادُوا أمُــوْرَاً زيَّنتْهــا حُلــومُهُمْ ... ســنُوردهُمْ يَوْمــاً مــن الغــيِّ مَــوْرِدَا
يُرجُّــونَ تكْــذِيبَ الــنبيِّ وقتلَــهُ ... وأنْ يُفتــرَى قِــدماً عليــهِ ويُجحَــدَا
كَــذَبْتُمْ وَبَيْــتِ اللّهِ حتَّــى نُــذيقكُمْ ... صُــدورَ العــوالِي والحُســامَ المُهنَّــدَا
ويبــدوَ مِنَّــا منظــرٌ ذُو كَرِيهــةٍ ... إذا مــا تسَــرْبَلنا الحديــدَ المُســرَّدَا
فإمَّــا تُبيــدُونا وإمَّــا نُبيــدُكُمْ ... وإمَّا تَـرَوْا سِلمَ العشيرةِ أرْشَـدَا(١٧٨)
وإلاَّ فــإنَّ الحــيَّ دونَ محمَّــدٍ ... بنــو هاشِــمٍ خَيْــرُ البريَّــةِ مَحْتِــدَا
فــإنَّ لــهُ مــنكُمْ مِــنَ اللّهِ ناصــراً ... ولســتَ بــلاقٍ صــاحبَ اللّهِ أوْحَــدَا
نــبيٌّ أتَــى مــن كــلِّ وحــيٍ بخُطَّــةٍ ... فســمَّاهُ ربِّــي في الكتــابِ مُحمَّــدَا
أغَــرُّ كنُــورِ البَــدْرِ صــورةُ وجهِــهِ ... جــلا الغَــيْمَ عنــهُ ضــوؤهُ فتعــدَّدَا(١٧٩)

وفي هذه القصيدة تشتبك حرارة الرثاء النَّاصع، الساجي بالفخر، المتَّزن المتأنِّي، المليء بالتدبُّر والاحتساب عند الله تعالى، وذلك من خلال أسلوب أفرزه القرآن الكريم على مساحة أبياتها، ثمَّ إلى مدح النبيِّ الأكرم i بعد أنْ تترسَّخ الصُّورة ممَّا يجعل الحركة العامة للقصيدة متناسقة متكاملة في وحدة موضوعيَّة تصاعديَّة تحكي لوعة الفراق لذلك الأب الرَّؤوف الحاني أبي طالب (رضي الله عنه)، فتستحقُّ بها أنْ تُعَدَّ مثالاً ضافياً للالتزام الفنِّي والأدبي. ولا يحيرُ الخبير عجباً لو اكتشف دقَّة التَّشابه في دور الأب النَّاصر الشاعر، وابنه النَّاصر الشاعر في الفكرة واللفظ والنَّفَس، بل حتَّى في أدقِّ الأدوات.

إذاً لم يرحل أبو طالب بعدُ، فهذا عليٌّ a خَلَفُه الصالح المواسي المستميت يكلأ

حبيبه النبيَّ i بحمايته والذبِّ عنه، وكان يمكن للفراغ في غياب أبي طالب (رضي الله عنه) أنْ يكون أكبر لولا ذلك، خاصَّةً حين اقترن بفراغ غياب أمِّ المؤمنين خديجة (رضي الله عنها) في السَّنة نفسها، ليسمِّي النبيُّ i عام رحيلهما (عام الحزن). وهنا يمكن لنا أنْ نتساءل: كيف يسوغ للنبيِّ i أنْ يحزن على عمِّه المشرك بزعم أعدائه، وهو سيِّد الشريعة والمفرغ عنها في كلِّ كبيرة وصغيرة؟ وهل يمكن للرَّسول i أنْ يخالف القرآن الكريم وهو يبلِّغ آياته للمسلمين، ويتلو عليهم قوله تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾[١٨٠]، وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾؟[١٨١].

وهل يبقى لَمنْ يقرأ هذا الموروث الأدبي الملتزم بتعاليم السماء، والإيمان بالرِّسالة المحمَّديَّة والذبِّ عن صاحبها، أدنى شكٍّ بما يُقال هنا وهناك من سفسطات أمويَّة وتكهُّنات غير مدروسة من أنَّ أبا طالب (رضي الله عنه) مات على غير هذا الدِّين؟ خصوصاً وأنَّه يقرأ له هذا البيت الخالد الذي يكشف عن إيمانه العميق برسالة النبيِّ i ، فيخترق السمع ويداعب القلب ليستقر أخيراً في الذاكرة العربيَّة الواعية لَمَّا يُنطق:

وبالغيبِ آمنَّا وقدْ كانَ قَوْمُنا ... يُصَلُّونَ للأوْثَانِ قَبْلَ مُحمَّدِ[١٨٢]

أو هذا الرَّجز الرَّائع وإنْ نُسب لابنه الإمام عليٍّ a أيضاً:

يا شاهِدَ اللهِ عليَّ فاشْهَدِ ... آمنْتُ بالوَاحِدِ ربِّ أحْمَدِ

مَنْ ضَلَّ في الدِّين فإنِّي مُهْتَدِ[١٨٣]

وقبل أنْ نختم بحثنا هذا لا ننسى أنْ نشارك أميرَ المؤمنين عليَّاً a مرثيته لأبيه حامي النبيِّ i المخلص، حيثُ ينفثها قائلاً:

أبا طَالبٍ عِصْمةَ المُستجيرِ ... وغيْثُ المَحُوْلِ ونُوْرُ الظُلَمْ

لقدْ هدَّ فقدُكَ أهلَ الحِفاظِ ... فصلَّى عَليكَ وليُّ النِّعَمْ

ولقَّاكَ ربُّكَ رِضْوانَهُ ... فقدْ كنتَ للطُّهرِ مِنْ خيرِ عَمْ[١٨٤]

ونختتم اللوعة لتتماهى هي ومرثيتها مع المعتقد الذي نذر أبو طالب (رضي الله عنه) له

نفسه، وراح يمتدُّ في أرواح أبنائه وأجسادهم، فيتحوَّل إلى أمَّة تملأ الأرض بفدائها وثباتها على الحقِّ، لا يضرُّها كيد الكائدين وحقد الحاقدين وتخلُّف المتخلِّفين؛ فهذه سُنَّة الله في أرضه وعباده، والحقُّ يعلو ولا يُعلى عليه. وإذا كان الطالبيُّون على مرِّ التَّاريخ قد دفعوا الضريبة فكرياً تشويهاً وطمساً، وجسدياً قتلاً وصلباً واستئصالاً، فلنْ يضيرهم خسران هذا العرض الزائل، وسيبقى أبو طالب (رضي الله عنه) صوتاً مجلجلاً بالظلامة، وضميراً ناصعاً بالحقِّ، تبلى القرون ولا يبلى، ويهب للتاريخ جِدةً ورونقاً وصفاء.

الخاتمة:

بهذا القدر من الحديث عن أبي طالب (رضي الله عنه) ودوره الرَّائد في هذه المرحلة، وخصائص شعره الفنيَّة والرِّساليَّة الملتزمة، يُمكن لنَا أنْ نكتفي بما ذُكر في المقام، ونودِّع مرحلةً بارزةً من مراحل الأدب الإسلامي ظهر فيها الشِّعر بكلِّ أدواره القويَّة الفاعلة، متسابقاً مع الزَّمن للذبِّ عن النبيِّ i ، ومضى منافحاً عنه ومنتصراً له. وقد كشفت لنا بوضوح عن شخصيَّةٍ ذات أبعاد تاريخيَّة وسياسيَّة ودينيَّة واجتماعيَّة تلك هي شخصيَّة أبي طالب (رضي الله عنه)، وعن أدب ملتزمٍ ومحافظٍ على روح القصيدة العربيَّة الأصيلة، وهو يتنقَّل بين المدح والهجاء والرِّثاء والفخر والحماسة، مع جنوحه إلى مضامين الجدل والاحتجاج العقيدي التي تفضح الخصم وتكشف عن صدق نبوَّة الخاتم i بكلِّ أبعادها.

وأمام الباحث المنصف حقائق دامغة لا يمكن الانصراف عنها وهو يبرهن على صحَّة نسبة المأثور الشِّعري لأبي طالب (رضي الله عنه)؛ إذ يجد نفسه أمام التَّخبُّط (المفبرك) للسياسة الأُمويَّة التي عملت ما بوسعها لتضييع الدور المشرِّف الذي أدَّاه (رضي الله عنه) في حركة الرِّسالة والرسول. ولا ندري، فلو أنَّ شيخاً متنفِّذاً وزعيماً موهوباً مقتدراً من شيوخ القبائل وزعمائها ضحَّى بكلِّ ما يملك لأحد الأحزاب السياسيَّة وقيادتها منذ أوائل خلايا تنظيمها السِّري، بدرجة تضحية أبي طالب (رضي الله عنه) للإسلام، أما كان يُعتبر من الطلائع الثوريَّة المؤسِّسة بمواهبها وأفكارها ونمط تحرُّكها؟ لولا أنْ يُكتب تاريخها بأيدي أعدائها ويُمحى منه مثل شعر أبي طالب (رضي الله عنه) ومجمل دوره.

واللافت للنظر أنَّ الخصوم تصوَّروا سهولة ذلك ويُسرَه؛ لأنَّ موروثاً كالشِّعر قابل للاختراق والتشويه، ولكن غاب عنهم أنَّ ما كان لله تعالى ولرسوله i يكتسب حصانةً

كافيةً من تحريف المنتحلين وتلاعب المغرضين. وحين عاد اللاهثون الأوائل بخُفَّي حُنين عمد المتأخِّرون إلى إنكار قصيد أبي طالب (رضي الله عنه) بدعوات مختلفة على الرُّغم من انكشاف الحقيقة أمامهم، ووضوح مؤامرة الطمس هذه وأهدافها القديمة الجديدة. وعندما ندرك ذلك يتَّضح لنَا طريق الاستجلاء وإزالة غبار الأيَّام برؤية نافذة لكلِّ الأبعاد وقرائنها، ونخلص إلى المهمِّ التَّالي، وهو:

١. إنَّ ما وصَلَنا من أشعاره (رضي الله عنه) تتشابه في خصائصها بانسجام يعبِّر عن أفكار وعواطف متَّحدة لا يمكن أنْ تكونَ لأكثر من واحد أو حتَّى لغيره (رضي الله عنه).

٢. أنَّ قصائدَه ومقطوعاته جاءت لتعكس بأمانة وحضور دائم أدقَّ الدقائق في مرحلة تاريخيَّة حسَّاسة مرَّ بها النبيُّ الأكرم i .

٣. أنَّ الحوادث والعلائم التَّاريخيَّة التي تضمَّنتْها تلك القصائد تثبتُ ـ دون شكٍّ ـ أنَّ فحواها وأسلوبها يُفرغ ـ بصدق ـ عن معالم شخصيَّة أبي طالب (رضي الله عنه) وحضوره القوي، أو على الأقل عن دوره الأُسري الاجتماعي في حماية النبيِّ i .

ومن الثابت تاريخيَّاً أنَّ الدوافع والدواعي كانت متوفِّرةً متحفِّزةً لطمسها، الأمر الذي أدَّى في قبالها إلى نشوء دوافع معاكسة لها؛ وذلك للحفاظ على هذا التَّراث الشِّعري كردِّ فعل طبيعي أمام الإصرار والعنت الدائبين، وهو ما برهن عليه الواقع والاستقراء. ولا نبالغ إذا ما قلنا: لا نكاد نجد موروثاً أدبيَّاً استبطن آفاقاً مبدئيَّة في أيَّة مواجهة للباطل يخلو من العبث والتلاعب، لكنَّه لن يموت أبداً.

وكيف كان فإنَّ المتتبع لظروف تلك الحقبة الزَّمنيَّة من عمر الرِّسالة يجد عناية ورعاية من لدن النبيِّ i لإبقاء جذوة شعر أبي طالب (رضي الله عنه)؛ حيث يلحظ ذلك في أكثر من حالة حين يطلب i من صحابته وعامَّة المسلمين استذكاره والاستشهاد به في مناسباته المواتية، ممَّا أدَّى إلى حفظه واستظهاره. وإنَّ كلَّ أدب يرتبط من خلال وسائله التَّعبيريَّة بأحداث ووقائع تاريخيَّة وحضاريَّة مغيِّرة لمجرى المسيرة البشريَّة في الأرض، يكون نصيبه البقاء والدوام، ولا أدلَّ على ذلك من آداب الميثولوجيات العالميَّة الغابرة، والملاحم

والتراجيديا، وآداب الثورات الكبرى في التَّاريخ، وأدب النُّصوص المقدَّسة في الديانات والمذاهب الأخلاقيَّة والفلسفيَّة، وحتَّى السِّيَر الشعبيَّة. فهل يبخل التَّاريخ بذلك على شعر سيرة النبيِّ العظيم i ومراحل دعوته المباركة، وبداية ظهور النبوَّة وما رافقها من توجُّس قلق مريب، ثمَّ صراعها المرير ضد الشِّرك والهوى والانحراف لإثبات أحقِّيتها؟ وكيف إذا كان مثل شعر أبي طالب (رضي الله عنه) بكلِّ ما يحملُ من ثقل في المجتمع المكِّي، وما يملك من التَّوثيق التَّاريخي الخطير لأهمِّ مرحلة من مراحل بداية الرِّسالة، موضحاً الكثير من معاناتها وهمومها؟

إنَّ هذا ليجعلنا نبحثُ دائبين عن بقيَّة باقية ربما ادَّخرها لنَا التَّاريخ في خباياه من شعر أبي طالب (رضي الله عنه)، وهو لَّما رافق مثل هذه المواجهة؛ فإنَّ حصول ردَّة فعل معاكسة متوقَّعٌ تماماً، والتي ربما جاوزت حدَّ المتعارف المعقول لتأكيد الضدِّ المزعوم، بالإجهاز على الخلق والموضوعيَّة وأمانة النقل وشرف الكلمة ومسؤوليَّتها، لكنَّ الشِّعر بطبيعته يتجاوز حدود الزمان والمكان، ويندرج ضمن تفاعلات وتجارب شعوريَّة عميقة ليُساهم بتشكيل الأبعاد الحضاريَّة لأيَّة أمَّة، ويغدو قيمةً مهمَّة من قيمها التَّاريخيَّة.

هوامش البحث

(١) أستاذ لمادَّة النحو العربي في جامعة الإمام الصادق a في ميسان. حاصل على شهادة الدكتوراه في اللغة العربيَّة وآدابها من جامعة المصطفى العالميَّة. حاصل على شهادة عالية في طُرق التدريس من الجامعة أعلاه بعد تدريسٍ فيها وفي غيرها من المدارس والجامعات لأكثر من (١٠) سنوات. زاول التأليف والتحقيق في دار الأدب الإسلامي لأكثر من (١٥) سنة، وكان خلالها عضواً في لجنة التأليف لموسوعة (النبيِّ وأهل بيته في الشعر العربي) والتي صدر منها للأسواق خمسة أجزاء، يحتوي كلُّ جزء منها على أكثر من (٦٨٠) صفحة. عمل رئيساً لقسم تقويم النصِّ وتصحيحه في أحد المعاهد العامَّة، تمخَّض خلالها تقويم وتصحيح عشرات الكتب والبحوث والمقالات في المجالات كافة. عمل في الكثير من القنوات التلفزيونيَّة مُعداً ومقدِّماً للبرامج الأدبيَّة والتاريخيَّة والعقديَّة. له عدة بحوث أدبيَّة ولغويَّة منشورة في المجلَّات الفصليَّة المحكَّمة.

(٢) يُنظر: البلاذري، أنساب الأشراف، ج٢، ص ٢٣ ـ ٢٤، الزبير بن بكار، أنساب قريش، ج٢، ص٣٣ ـ ٣٤، وغيرهما من أمَّهات التراجم.

(٣) ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ، ج١، ص٢٥٨.

(٤) ديوان العبَّاس بن مرداس، ص٥٦.

(٥) ديوان حسَّان بن ثابت، ص٥٢.

(٦) شرح نهج البلاغة، ج١٣، ص٢٦٩، وج١٤، ص٧٦.

(٧) شرح نهج البلاغة، ج١٤، ص٧٨.

(٨) ديوان شيخ الأباطح أبي طالب، ص٢١.

(٩) سيرة ابن إسحاق، ص١٥٧. ويذبُل: هو واحد من أشهر جبال نجد وأكبرها.

(١٠) محمَّد عبد العزيز الكفراوي ـ تاريخ الشِّعر العربي، ج١، ص١٧.

(١١) محمَّد عبد العزيز الكفراوي ـ تاريخ الشِّعر العربي، ج١، ص٢٠.

(١٢) بنيْ: تخفيف بَنيَّ.

(١٣) سيرة ابن إسحاق، ص٦٩، دلائل النبوَّة، ج٢، ص٢٢، تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص١٣.

(١٤) زِيد هذان الشَّطران من أعلام النبوَّة، ج١، ص١٩٨.

(١٥) سيرة ابن إسحاق، ص٦٩ ـ ٧٠، دلائل النبوَّة، ج٢، ص٢٢ ـ ٢٣، مناقب آل أبي طالب، ج١، ص٣٦، ديوان شيخ الأباطح أبي طالب، ص١٠١.

(١٦) د. مصطفى صادق الرافعي ـ تحت راية القرآن، ص١٤٨.

(١٧) القَرْم: السيِّد المُعظَّم.

(١٨) الكمد: كتمان الحزن أو الحزن الشديد.

(١٩) ديوان شيخ الأباطح أبي طالب، ص٥٤.

(٢٠) أراد بـ (صفيَّ وأميمَ) صفية وأميمة بنتَي عبد المطَّلب بن هاشم.

(٢١) ديوان شيخ الأباطح أبي طالب، ص٥٣.

(٢٢) سيرة ابن إسحاق، ص٧٨، ديوان شيخ الأباطح أبي طالب، ص٩١.

(٢٣) الخصائص الكبرى، ج١، ص١٤٤، سيرة ابن إسحاق، ص٧٨ ذكرها ضمن النَّص السابق.

(٢٤) قلَّصن: وثبنَ، وجددنَ في السير.

(٢٥) الطيَّة: الناحية من الأرض.

(٢٦) سيرة ابن إسحاق، ص٧٦ ـ ٧٧، بحار الأنوار، ج١٥، ص١٩٩ ـ ٢٠٠، ديوان شيخ الأباطح أبي طالب، ص٨٧ ـ ٨٨.

(٢٧) ناش: تناول وأخذ.

(٢٨) ذاتُ سجام: ذات سيل.

(٢٩) لِعُرامهم: لِشدَّتهم.

(٣٠) الطَّغام: أراذل النَّاس وأوغادهم.

(٣١) سيرة ابن إسحاق، ص٧٧، الرَّوض الأُنف، ج٢، ص٢٢٧ ـ ٢٢٨، ديوان شيخ الأباطح أبي طالب، ص٨٩ ـ ٩٠.

(٣٢) يُنظر: ابن سلام الجمحي ـ طبقات فحول الشُّعراء، ج١، ص٢٣٣.

(٣٣) النثا: ما أخبرتَ عن الرَّجل من حَسَنٍ أو سيِّئ. ويشيدُ: يُنوِّه به ويرفع به صوتَه.

(٣٤) ديوان شيخ الأباطح أبي طالب، ص٤٩ ـ ٥٠.

(٣٥) أربد وجهه: احمرَّ حمرة فيها سواد عند الغضب، وفيه كناية عن الأنفة والإباء.

(٣٦) الصفيح (هنا): الحجر.

(٣٧) رفرف الدرع: ما سبل منها وتثنَّى. وأحرد: فيه ميل.

(٣٨) ديوان شيخ الأباطح أبي طالب، ص٤٥ ـ ٤٦، الغدير، ج٧، ص٣٦٤ ـ ٣٦٥.

(٣٩) مناقب آل أبي طالب، ج١، ص٥٦، ص١٠٨. بحار الأنوار، ج١٨، ص٢٠٣، ديوان شيخ الأباطح أبي طالب.

(٤٠) شرح نهج البلاغة، ج١٤، ص٧٨، بحار الأنوار، ج٣٥، ص١٦٤ ـ ١٦٥، ديوان شيخ الأباطح أبي طالب، ص١١٣.

(٤١) سورة المائدة، الآية ١٩.

(٤٢) الشَّغب: تهييج الشرِّ وإثارة الفتن والاضطراب.

(٤٣) سيرة ابن إسحاق، ص٢٢١ ـ ٢٢٢، شرح نهج البلاغة، ج١٤، ص٧٥، ديوان شيخ الأباطح أبي طالب، ص١٠٩.

(٤٤) في البيت إقواءٌ واضح.

(٤٥) المرجَّم: المظنون الذي لا ثبوت له.

(٤٦) سيرة ابن إسحاق، ص٢٢٢، ديوان شيخ الأباطح أبي طالب، ص١٣٩.

(٤٧) د. محمود البستاني ـ تاريخ الأدب العربي في ضوء المنهج الإسلامي، ص١٥٩.

(٤٨) الخيل العُصَب: الشَّديدة السير.

(٤٩) تمزع: تُسرع.

(٥٠) الضافي: الطويل. والسبب من الفرس: شعر الذنب والناصية والعرف. وطويل اللبب: واسع الصدر.

(٥١) سمحوجة: طويلة. والنقائع: جمع نقيعة، وهي ما ينقع لها من الشعير.

(٥٢) سيرة ابن إسحاق، ص١٦٣، مناقب آل أبي طالب، ج١، ص٦٦، شرح نهج البلاغة، ج١٤، ص٦١ - ٦٢، ديوان شيخ الأباطح أبي طالب، ص٧٣ - ٧٤.

(٥٣) الخُطَّة: (بضم الخاء وتشديد الطاء): الأمر. وأبلج: واضح.

(٥٤) الرَّاقصات: الإبل السَّائرات. والخَرق: الفتى الظريف في سماحة ونجدة. لا نريم: لا نميل.

(٥٥) مناقب آل أبي طالب، ج١، ص٦٣ - ٦٤، شرح نهج البلاغة، ج١٤، ص٦١، ديوان شيخ الأباطح أبي طالب، ص٧٩ - ٨٠.

(٥٦) تقحَّم: غاب وسقط.

(٥٧) الموسم: المجمع الكثير من الناس.

(٥٨) الوشيج: الرماح.

(٥٩) الزأرتين: مثنَّى زأرة، وهي الغابة والأجمة.

(٦٠) التسدُّم: الهمُّ مع ندم.

(٦١) سيرة ابن إسحاق، ص١٦٠، شرح نهج البلاغة، ج١٤، ص٧١ - ٧٢، ديوان شيخ الأباطح أبي طالب، ص٨١ - ٨٣.

(٦٢) شرح نهج البلاغة، ج١٤، ص٧٣ - ٧٤، الدرجات الرفيعة، ص٥٣، حياة الصحابة، ج١، ص٢١٩، وقد نسبها للإمام علي (عليه السلام).

(٦٣) مُعجم الشُّعراء، ص٩٠، عيون الأخبار، ج١، ص٧٨.

(٦٤) سِرُّهَا، أيْ وَسَطُهَا. وَسِرُّ الوَادِي وَسَرَارَتُهُ وَسَطُهُ.

(٦٥) حُصِّلتْ: مُيِّزتْ.

(٦٦) السِّرُّ من النَّسب: محضه وأفضله. والصميم: خالص الشيء ومحضه. وسرها وصميمها: خالصها وكريمها. يُقال: فلان من سرِّ قومه. أي من خيارهم ولبابهم وأشرافهم.

(٦٧) طاشت حلومها: ذهبت عقولها.

(٦٨) ثنوا: عطفوا. صعر: جمع أصعر، وهو الذي مال بوجهه عن النظر إلى الناس تكبُّراً.

(٦٩) انتعش: ظهرت فيه الخضرة. الذواء: اليابس. الأكناف: النواحي. الأرومة: الأصل.

(٧٠) سيرة ابن اسحاق، ص١٤٩، البداية والنهاية، ج٣، ص٩٨، الحماسة المغربيَّة، ج١، ص١٠٢، ديوان شيخ الأباطح أبي طالب، ص٧١ - ٧٢.

(٧١) الحُجَّة على الذاهب إلى تكفير أبي طالب، ص٣٤٦ ـ ٣٤٧.

(٧٢) الخضم: الكثير.

(٧٣) الرَّبيكة: طعام يعمل من تمر وأقط وسمن.

(٧٤) يريد بالعَنجد هنا الزبيب.

(٧٥) المأزمان: موضع بين المشعر الحرام وعرفة، وهو شِعب بين جبلين.

(٧٦) شرح نهج البلاغة، ج١٤، ص٧٧، الدرجات الرفيعة، ص٥٣، ديوان شيخ الأباطح أبي طالب، ص١١٧.

(٧٧) لجنة التأليف في مؤسسة البلاغ ـ سيرة رسول الله i وأهل بيته، ج١، ص٤٨٧.

(٧٨) الغضاضة: الذلَّة والمنقصة.

(٧٩) سيرة ابن إسحاق، ص١٥٥، دلائل النبوَّة، ج٢، ص١٨٨، تاريخ الإسلام ـ السِّيرة النَّبويَّة، ص١٥٠، البداية والنهاية، ج٣، ص٩٢، خزانة الأدب، ج١، ص٢٦١، شرح نهج البلاغة، ج١٤، ص٥٥.

(٨٠) ديوان شيخ الأباطح أبي طالب، ص١١١.

(٨١) مناقب آل أبي طالب، ج١، ص٦١، بحار الأنوار، ج٣٥، ص٨٩، ديوان شيخ الأباطح أبي طالب، ص١١١.

(٨٢) الخنفقيق: الداهية.

(٨٣) البكار: جمع بكرة، وهي الأنثى الفتية من الإبل. والفنيق: الفحل من الإبل.

(٨٤) سيرة ابن إسحاق، ص١٤٩، أنساب الأشراف، ج٢، ص٢٩١، مناقب آل أبي طالب، ج١، ص٦١، شرح نهج البلاغة، ج١٤، ص٧٤، ديوان شيخ الأباطح أبي طالب، ص٦٩ ـ ٧٠.

(٨٥) كنز الفوائد، ج١، ص١٨٢، بحار الأنوار، ج٣٥، ص١٢٥، ديوان شيخ الأباطح أبي طالب، ص١٤٥.

(٨٦) العرقوب: عصب غليظ فوق عقب الإنسان.

(٨٧) سيرة ابن إسحاق، ص٢١١ ـ ٢١٢، كنز الفوائد، ج١، ص١٧٢، شرح نهج البلاغة، ج١٤، ص٧٤، ديوان شيخ الأباطح أبي طالب، ص٤٣.

(٨٨) يُنظر: د. محمود البستاني ـ تاريخ الأدب العربي في ضوء المنهج الإسلامي، ص١٦٢.

(٨٩) المعجل من الإبل وغيرها: ما يُولد قبل أنْ يستكمل الحول فيعيش.

(٩٠) نجالح: أي نصبر ونهاجم. والمجلاح من النوق: الذي يصبر على الحرِّ والبرد.

(٩١) عيطل: أي طويلة، وهي في الأصل بمعنى طويلة العنق.

(٩٢) الطِمرَّة: مؤنث الطِمرِّ، وهو الفرس الجواد الشديد العَدْو. وميعة الفرس: أول جريه. ونهد المراكل: واسع الجوف. وهيكل: مرتفع.

(٩٣) المقصل: القاطع.

(٩٤) الزَّغْف: الدرع الواسعة الطويلة.

(٩٥) سيرة ابن إسحاق، ص١٥٧ - ١٥٨، شرح نهج البلاغة، ج١٤، ص٦٢ - ٦٣، ديوان شيخ الأباطح أبي طالب، ص٧٥ - ٧٧.

(٩٦) في ديوانه (بتحقيق المحمودي) ذُكرت هذه القصيدة نقلاً عن بحار الأنوار، ج٣٥، ص١٤٩ في ثلاثين بيتاً، ونحن نرى أنَّ الأبيات المضافة لا يمكن الاطمئنان إليها.

(٩٧) الشُهور: العلماء، واحدهم شهر.

(٩٨) بحار الأنوار، ج٣٥، ص١٤٩، ديوان شيخ الأباطح أبي طالب، ص١٢٤.

(٩٩) القدائم: جمع قديمة، وأراد بها مواضع. والرمائم: هي التي تكنس كلَّ شيء.

(١٠٠) أنزفت دمعي: أفنيته. والصرم: القطعة من الأخبية المنفردة.

(١٠١) غفاريَّة: نسبة إلى غفار بن مالك، وهي قبيلة من كنانة، وهم رهط أبي ذر. وبولان: موضع في طريق اليمن. وينبع: بالمدينة. والرَّجائم: جمع رجيمة، وهي جبال ترمي بالحجارة فسماها بفعلها، وقلب فقال: رجائم.

(١٠٢) قاتم: مغطىً كأنَّ عليه قتاماً.

(١٠٣) الغَلاصم: جمع الغَلْصَمَة، وهي رأس الحُلْقوم بِشَوَارِبِه وحَرْقدته، وَهُوَ الْمَوْضِعُ النَّاتِئُ فِي الحَلْق، وَقِيلَ: هي اللَّحم الَّذِي بَيْنَ الرأس والعُنُق، وَقِيلَ: مُتَّصَلُ الْحُلْقُومِ بِالْحَلْقِ إِذَا ازْدَرَدَ الآكِلُ لُقْمَته فَزَلَّتْ عَنِ الْحُلْقُومِ، وَقِيلَ: هِيَ العُجرةُ الَّتِي عَلَى مُلْتَقَى اللَّهاةِ والمَرِيءِ.

(١٠٤) القماقم: جمع قمقام، وهو السيد الجامع للسيادة الواسع الخير.

(١٠٥) شرح نهج البلاغة، ج١٤، ص٧٣، الدرجات الرفيعة، ص٥٢، ديوان شيخ الأباطح أبي طالب، ص٨٤ - ٨٥.

(١٠٦) أراد بـ (تعرَّفا): عرف المجد.

(١٠٧) ديوان شيخ الأباطح أبي طالب، ص٥٩.

(١٠٨) شرح نهج البلاغة، ج١٥، ص١١٧.

(١٠٩) الخُورُ: الضِّعَافُ. وَالحَبْحَابُ أو الجِبْجَاب: الكَثِيرُ الهَدْر.

(١١٠) الوبر: حيوان على شكل الهرَّة، تُشبَّه بها لصغرها.

(١١١) يُرسُّ: يُذكر في خفاء.

(١١٢) سيرة ابن إسحاق، ص١٥٣، السِّيرة النَّبويَّة، ج١، ص٢٨٦ - ٢٨٧، البداية والنهاية، ج٣، ص٩٨، ديوان شيخ الأباطح أبي طالب، ص٦٣ - ٦٥.

(١١٣) الرَّوض الأُنف، ج١، ص٢٤٨.

(١١٤) مُعجم الشُّعراء، ص٢٤.

(١١٥) المؤتلف والمختلف، ص١٣١.

(١١٦) الطبقات الكبرى، ج١، ص٢٠٣.

(١١٧) يُنظر: سيرة ابن إسحاق، ص٨٧، وما بعدها.

(١١٨) في البيت إقواءٌ واضح.

(١١٩) رأب: أصلح. والثأى: أثر الجرح. ورأب الثأى كناية عن إصلاح الفاسد.

(١٢٠) المُرثَم الطليح: البعير التعب المُعيا.

(١٢١) سيرة ابن إسحاق، ص١٦٣ - ١٦٤، مناقب آل أبي طالب، ج١، ص٦٦، ديوان شيخ الأباطح أبي طالب، ص٥١ - ٥٢.

(١٢٢) أرود: أرفق.

(١٢٣) القرقر: الليِّن السهل. وطائرها: أي حظها من الشُّؤم والشَّر.

(١٢٤) يُتهم: يأتي تهامة. ويُنجد: يأتي نجداً، وفيه كناية عن التردُّد في الأمر.

(١٢٥) الأخشبان: جبلان بمكَّة. والمِرْهَد: الرُّمح الليِّن.

(١٢٦) سيرة ابن إسحاق، ص١٦٧، أنساب الأشراف، ج٢، ص٢٩١ - ٢٩٢، البداية والنهاية، ج٣، ص١٤٤ - ١٤٥، الرَّوض الأُنف، ج٢، ص١٦٢.

(١٢٧) السقب: ولد الناقة الذكر ساعة يولد.

(١٢٨) الزُّبى: جمع زُبية، وهي ما يُحفر لصيد الأسد.

(١٢٩) العزَّاء: السنة الشديدة.

(١٣٠) السوالف: صفحات الأعناق. وأُترَّتْ: قُطعتْ.

(١٣١) سيرة ابن إسحاق، ص١٥٧، كنز الفوائد، ج١، ص١٨٠ - ١٨١، شرح نهج البلاغة، ج١٤، ص٧٢ - ٧٣، ديوان شيخ الأباطح أبي طالب، ص١٠٢.

(١٣٢) ديوان شيخ الأباطح أبي طالب، ص١٢٩، الدرجات الرفيعة، ص٦١.

(١٣٣) ديوان شيخ الأباطح أبي طالب، ص٥٧.

(١٣٤) المقة: المحبَّة.

(١٣٥) المَحْتِد: الأصل.

(١٣٦) ديوان شيخ الأباطح أبي طالب، ص٥٨.

(١٣٧) كنز الفوائد، ج١، ص١٨١، مناقب آل أبي طالب، ج١، ص٦٢، شرح نهج البلاغة، ج١٤، ص٧٦ - ٧٧، ديوان شيخ الأباطح أبي طالب، ص١٢١.

(١٣٨) ديوان شيخ الأباطح أبي طالب، ص١٣٧، الحُجَّة على الذاهب إلى تكفير أبي طالب، ص٢٨١، الغدير، ج٧، ص٣٧١ - ٣٧٢. غير مُدال: غير مغلوب.

(١٣٩) مناقب آل أبي طالب، ج١، ص٦٢، بحار الأنوار، ج٣٥، ص٩١، ديوان شيخ الأباطح أبي طالب، ص١٣٣.

(١٤٠) سيرة ابن إسحاق، ص١٦٤ - ١٦٥، أنساب الأشراف، ج٢، ص٢٩٣، شرح نهج البلاغة، ج١٤، ص٥٧، ديوان شيخ الأباطح أبي طالب، ص١٤٤.

(١٤١) شرح نهج البلاغة، ج١٤، ص٧، سيرة ابن إسحاق، ص٢٠٨، تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص٢٥، ديوان شيخ الأباطح أبي طالب، ص١٣١.

(١٤٢) شرح نهج البلاغة، ج١٤، ص٦٤، الدرجات الرفيعة، ص٤٢، ديوان شيخ الأباطح أبي طالب، ص١٠٤.

(١٤٣) د. محمود البستاني - تاريخ الأدب العربي في ضوء المنهج الإسلامي، ص١٦٢.

(١٤٤) د. شوقي ضيف - تاريخ الأدب العربي - العصر الإسلامي، ص٥٢.

(١٤٥) ابن هشام - السِّيرة النَّبويَّة، ج١، ص٢٩١.

(١٤٦) التلاتل: جمع تلتلة، وهي الشِّدة.

(١٤٧) المقاول: الملوك. وقد شَبَّهَ آبَاءَهُ بِالمُلُوكِ وَلَمَّا يَكُونُوا مُلُوكاً.

(١٤٨) النافل: الحالف، أو الذي يؤدِّي النافلة.

(١٤٩) مُوَسَّمَةُ الأَعْضَادِ أَوْ قَصِرَاتُهَا: أي مُعَلَّمَةٌ بِسِمَةٍ فِي أَعْضَادِهَا، وَيُقَالُ لِذَلِكَ الوَسْمِ: السَّطَاعُ. البازل: الذي خَرج نابه.

(١٥٠) العثاكل: الأغصان التي ينبت عليها الثمر.

(١٥١) ثَوْرٌ: جَبَلٌ بِمَكَّةَ، وثَبِيرٌ: جَبَلٌ مِنْ جِبَالِهَا.

(١٥٢) الألال: جبل بعرفات. وَالشَّرَاجُ: جَمْعُ شَرْجٍ، وَهُوَ مَسِيلُ المَاءِ. وَالقَوَابِلُ: المُتَقَابِلَةُ.

(١٥٣) جمع هنا: المزدلفة، سميت بذلك لاجتماع الناس بها.

(١٥٤) الوابل: المطر الشديد.

(١٥٥) الوخد: السريع السير.

(١٥٦) البلابل: وساوس الهموم.

(١٥٧) نبزي: نبطش ونقهر.

(١٥٨) الرَّوايا: الأبل التي تحمل الماء والأسقية. وَاحِدَتُهَا: رَاوِيَة. والصَّلاصل: المَزَادَاتُ لَهَا صَلصَلَةٌ بِالمَاءِ.

(١٥٩) ركب ردعه: إذا خرَّ صريعاً لوجهه. والأنكب: المائل إلى جهة.

(١٦٠) مجرَّماً: كاملاً.

(١٦١) الذَّرب: الفاحش المنطق لا يبالي بما قال.

(١٦٢) لمْ يربع: لمْ يعطف.

(١٦٣) جامل: اسم لجماعة الجمال.

(١٦٤) التَّلعة: المرتفع من الأرض. أَخْشُب: الأَخَاشِبَ، وَهِيَ جِبَالُ مَكَّةَ. المَجَادِلُ: جَمْعُ مِجْدَلٍ، وَهُوَ القَصْرُ، كَأَنَّهُ يُرِيدُ مَا بَيْنَ جِبَالِ مَكَّةَ، فَقُصُورُ الشَّامِ أَوْ العِرَاقِ.

(١٦٥) الدغاول: الأمور الفاسدة. وقيل: الغوائل.

(١٦٦) ساموك خطة: كلفوك أمراً. لست بوائل: لست بناجٍ.

(١٦٧) قَيْضاً: أَيْ مُعَاوَضَةً. الغياطل: بنو سهم؛ لأَنَّ أُمَّهُمْ الغَيْطَلَة.

(١٦٨) ألَبُوا: تجمعوا. والطمْل: الرجل الفاحش لا يبالي بما قال أو ما قيل فيه، والأحمق، واللّص.

(١٦٩) الحُلاحِل: السيد في عشيرته

(١٧٠) عجز هذا البيت مختل الوزن، ولعلَّه (إلى الآن حطبُ أقدر ومراجلِ).

(١٧١) هكذا ورد، والصحيح أنْ يقترن جواب الشرط بالفاء؛ لمجيء سين التسويف أوَّل الفعل. واللاقح: النَّاقة التي قبلت ماء الفحل، والبَاهِلُ: النَّاقَةُ التِي لا صِرَارَ عَلَى أَخْلافِهَا، فَهِيَ مُبَاحَةُ الحَلَب، أو هي التي أُهمل رعيها.

(١٧٢) المخاصل: جمع مخصل، وهو السيف القاطع.

(١٧٣) الخرادل: القطع من اللحم.

(١٧٤) الكلاكل: جمع كلكل، وهو الصدر.

(١٧٥) السِّيرة النَّبويَّة، ج١، ص٢٩١ - ٢٩٩، تاريخ الإسلام - السِّيرة النَّبويَّة، ج١، ص١٦٢ - ١٦٣، شرح نهج البلاغة، ج١٤، ص٧٩، ديوان شيخ الأباطح أبي طالب، ص٢١ - ٣٨.

(١٧٦) د. محمود البستاني - تاريخ الأدب العربي في ضوء المنهج الإسلامي، ص١٦٠ - ١٦١.

(١٧٧) د. عبده بدوي - قضايا حول الشعر، ص١٩.

(١٧٨) يلاحظ حذف النون في الفعلين (تبيدونا) و(تروا) مع عدم وجود العامل الداعي لذلك.

(١٧٩) جُمعت القصيدة من المصادر التالية: سيرة ابن إسحاق، ص٢٣٩، بحار الأنوار، ج٣٥، ص١٤٢، ديوان الإمام علي (عليه السلام)، ص٤٩ ـ ٥٠، ديوان شيخ الأباطح أبي طالب، ص١٧.

(١٨٠) سورة آل عمران، الآية ٢٨.

(١٨١) سورة التوبة، الآية ٢٣.

(١٨٢) ديوان شيخ الأباطح أبي طالب، ص١١٨.

(١٨٣) كنز الفوائد، ج١، ص١٨٢، شرح نهج البلاغة، ج١٤، ص٧٨، ديوان شيخ الأباطح أبي طالب، ص١١٧.

(١٨٤) أعيان الشيعة، ج٨، ص١١٨، الغدير، ج٧، ص٣٧٨ ـ ٣٧٩.

قائمة المصادر والمراجع

إن خير مانبتديء به القرآن الكريم

١. أعلام النبوَّة ـ أبو الحسن علي بن محمَّد بن حبيب الماوردي ـ تحقيق: محمَّد المعتصم بالله البغدادي ـ الطبعة الأولى ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت/ ١٩٨٧م.

٢. أعيان الشيعة ـ السيد محسن الأمين ـ تحقيق: حسن الأمين ـ دار التَّعارف ـ بيروت/ ١٩٨٣م.

٣. أنساب الأشراف ـ أحمد بن يحيى البلاذري ـ تحقيق د. سهيل زكَّار، د. رياض زركلي ـ الطبعة الأولى ـ دار الفكر ـ بيروت/ ١٩٩٦م.

٤. بحار الأنوار ـ الشيخ محمَّد باقر المجلسي ـ الطبعة الثالثة ـ دار إحياء التَّراث العربي ـ بيروت/ ١٩٨٣م.

٥. البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ تحقيق: علي شيري ـ الطبعة الأولى ـ دار إحياء التَّراث العربي ـ بيروت/ ١٤٠٨هـ.

٦. تاريخ الأدب العربي ـ العصر الإسلامي ـ د. شوقي ضيف ـ الطبعة الأولى ـ دار المعارف ـ مصر.

٧. تاريخ الأدب العربي في ضوء المنهج الإسلامي ـ د. محمود البستاني ـ الطبعة الأولى ـ مجمع البحوث الإسلاميَّة/ ١٤١٣ هـ.

٨. تاريخ الإسلام ـ الحافظ شمس الدِّين محمَّد الذهبي ـ تحقيق: د. عمر عبد السلام ـ الطبعة الأولى ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت/ ١٩٩٠م.

٩. تاريخ الشِّعر العربي ـ محمَّد عبد العزيز الكفراوي ـ مطبعة الرِّسالة ـ مصر.

١٠. تاريخ اليعقوبي ـ أحمد بن أبي يعقوب ـ دار صادر ـ بيروت.

١١. تحت راية القرآن ـ د. مصطفى صادق الرافعي ـ تحقيق: محمَّد سعيد العريان ـ الطبعة السابعة ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت/ ١٣٩٤ هـ ـ ١٩٧٤م.

١٢. الحُجَّة على الذاهب إلى تكفير أبي طالب ـ الإمام شمس الدِّين أبو فخار بن معن الموسوي (بدون تاريخ).

١٣. الحماسة المغربيَّة ـ أحمد بن عبد السلام ـ الطبعة الأولى ـ دار الفكر ـ دمشق/ ١٩٩١م.

١٤. حياة الصحابة ـ يوسف الكاندهلوي ـ الطبعة الأولى ـ دار الحكمة ـ دمشق/ ١٩٨٩م.

١٥. خزانة الأدب ـ عبد القادر بن عمر البغدادي ـ تحقيق: عبد السلام محمَّد هارون ـ الطبعة الثالثة ـ مكتبة الخانجي ـ القاهرة/ ١٩٨٩م.

١٦. الخصائص الكبرى ـ جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي ـ الطبعة الأولى ـ دار الكتب العلميَّة ـ بيروت/ ١٩٨٥م.

١٧. الدرجات الرفيعة في طبقات الشيعة ـ علي خان الشيرازي ـ الطبعة الثانية ـ مؤسَّسة الوفا ـ بيروت/ ١٩٨٣م.

١٨. دلائل النبوَّة ـ أحمد بن الحسين البيهقي ـ تحقيق: د. عبد المعطي قلعجي ـ الطبعة الأولى ـ دار الكتب العلميَّة ـ بيروت/ ١٩٨٥م.

١٩. ديوان الإمام علي a ـ منشورات مؤسَّسة الأعلمي ـ بيروت.

٢٠. ديوان العبَّاس بن مرداس السَّلمي ـ جمع وتحقيق: د. يحيى الجبوري ـ الطبعة الأولى ـ مؤسَّسة الرِّسالة ـ بيروت/ ١٩٩١م.

٢١. ديوان حسَّان بن ثابت ـ دار صادر ـ بيروت/ ١٩٨٧م.

٢٢. ديوان شيخ الأباطح أبي طالب ـ تحقيق: محمَّد باقر المحمودي ـ الطبعة الأولى ـ مجمع إحياء الثقافة الإسلاميَّة.

٢٣. الرَّوض الأُنف ـ عبد الرحمن بن عبد الله السهيلي ـ الطباعة الفنيَّة المتَّحدة.

٢٤. سيرة ابن إسحاق ـ محمَّد بن إسحاق ـ الطبعة الأولى ـ دار الفكر/ ١٩٧٨م.

٢٥. السيرة النبويَّة ـ عبد الملك بن هشام ـ دار إحياء التُّراث العربي ـ بيروت.

٢٦. سيرة رسول الله وأهل بيته d ـ الطبعة الأولى ـ مؤسَّسة البلاغ.

٢٧. شرح نهج البلاغة ـ عبد الحميد بن أبي الحديد المعتزلي ـ تحقيق: محمَّد أبو الفضل إبراهيم ـ الطبعة الأولى ـ دار إحياء الكتب العربيَّة ـ بيروت/ ١٩٥٩م.

٢٨. طبقات فحول الشُّعراء ـ أبو عبد الله محمَّد بن سلاَّم بن عبيد الله البصري (ت ٢٣٢هـ) ـ تحقيق: محمود محمَّد شاكر ـ مطبعة المدني ـ القاهرة/ ١٣٩٤ هـ ـ ١٩٧٤م.

٢٩. الطبقات الكبرى ـ محمَّد بن سعد ـ الطبعة الأولى ـ دار الكتب العلميَّة ـ بيروت/ ١٩٩٠م.

٣٠. عيون الأخبار ـ عبد الله بن مسلم بن قتيبة ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت.

٣١. الغدير في الكتاب والسُّنَّة والأدب ـ الشيخ عبد الحسين الأميني ـ الطبعة الثانية ـ دار الكتب الإسلاميَّة/ ١٩٨٧م.

٣٢. قضايا حول الشعر ـ د. عبده بدوي ـ الهيئة المصريَّة العامَّة للكتاب/ 1992م.

٣٣. الكامل في التَّاريخ ـ أبو الحسن علي بن محمَّد الجزري (المعروف بابن الأثير) ـ تحقيق: مكتب التُّراث ـ الطبعة الرابعة ـ مؤسَّسة التَّاريخ العربي ـ بيروت/ ١٩٩٤م.

٣٤. لسان العرب ـ أبو الفضل محمَّد بن منظور الأنصاري (ت ٧١١هـ) ـ تحقيق: عبد الله علي الكبير، محمَّد أحمد حسب الله، هاشم محمَّد الشاذلي ـ دار المعارف ـ القاهرة (بدون تاريخ).

٣٥. مُعجم الشُّعراء ـ أبو عبيد الله محمَّد بن عمران المرزباني ـ تهذيب: د. سالم الكرنكوي ـ الطبعة الثانية ـ دار الكتب العلميَّة ـ بيروت/ ١٩٨٢م.

٣٦. مناقب آل أبي طالب ـ محمَّد بن شهر آشوب ـ تحقيق: د. يوسف البقاعي ـ الطبعة الثانية ـ دار الأضواء ـ بيروت/ ١٩٩١م.

٣٧. المؤتلف والمختلف ـ أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدي ـ الطبعة الثانية ـ دار الكتب العلميَّة ـ بيروت/ ١٩٨٢م.